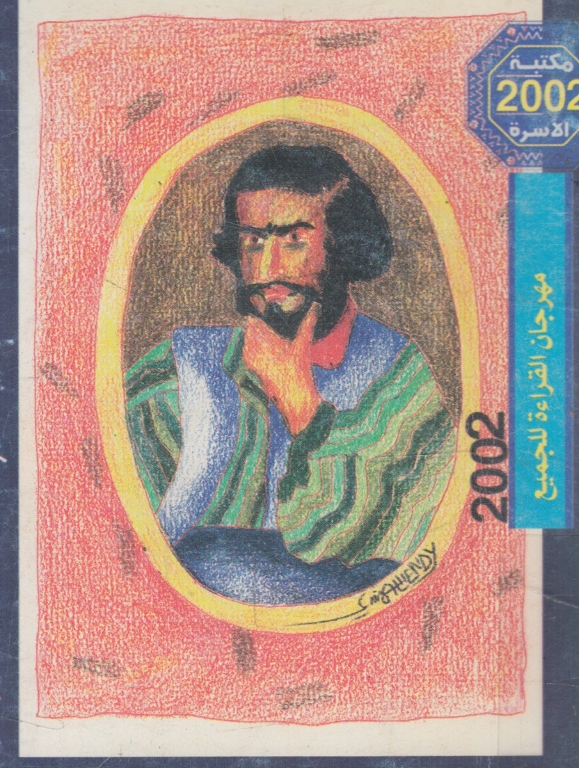
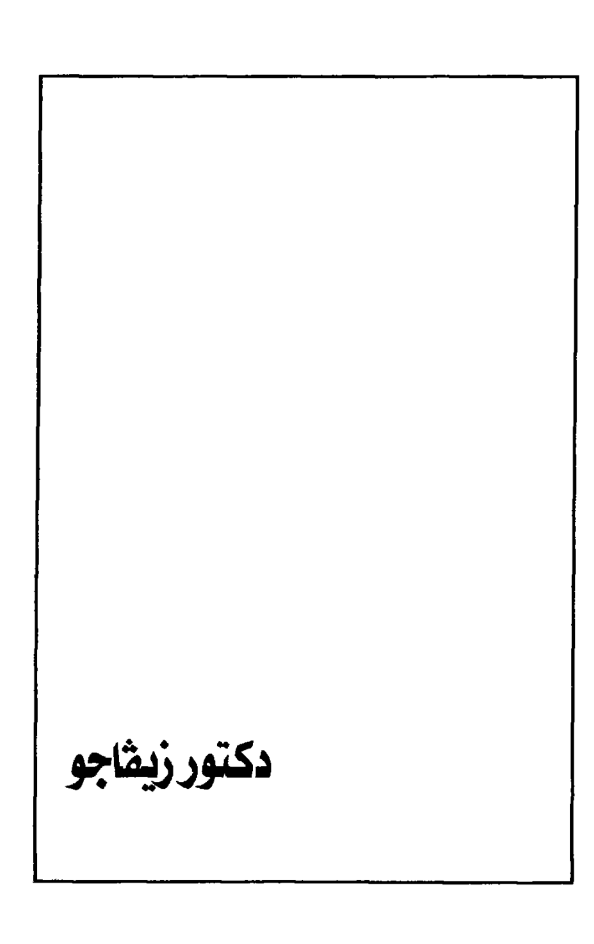


روائع الأدب العالمي للناشئين

تأليف: بوريس باستارناك / ترجمة: محمد رجب

دكتور زيفاجو

الهيئة المصرية العامة للكتاب


دكتور زيفاجو

دكتور زيفاجو

اسم العمل الفنى: دكتور زيفاجو

التقنية: أقلام ملونة على ورق

المقاس: ٢٥ × ٣٥ سم

محمود الهندى (١٩٤٣ -)

فنان تشكيلى مصرى، ومصمم جرافيكى، تخصص فى صناعة الكتاب، وابتكر صيغة موازاة الأعمال الأدبية بالأعمال التشكيلية فى الكتب منذ عام ١٩٦٤، ثم أقام معارضه داخل متون الكتب، ويحاول الولوج إلى عالم رسوم الأطفال لدور النشر المختلفة، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المركز القومى للطفل، هيئة قصور الثقافة، مؤسسة دار الهلال.

دكتور زيڤاجو

تأليف: بوريس باستارناك

ترجمة: محمد رجب

مراجعة: مختار السويفى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(روائع الأدب العالمى للناشئين)

دكتور زيفاجو
تأليف: بوريس باستارناك
ترجمة: محمد رجب
مراجعة: مختار السويفى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : **محمود الهندى**
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبد الواحد
المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصدراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً فى المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى «مكتبة الأسرة».. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ سوزان مبارك..

د. سمير سرحان

هذه ترجمة لرواية :

DOCTOR ZHIVAGO
BY: BORIS PASTERNAK

رئيس التحرير: مختار السويفى

بوريس باسترناك

ولد بوريس لندروڤيتش باتسرناك بموسكو عام ١٨٩٠، ودرس الموسيقى والفلسفة، وقد نشر أول إنتاجه الأدبى، وهو ديوان شعر بعنوان «توءم فى السحب» عام ١٩١٤، كما امتاز ديوانه الثالث «الحياة أختى» عام ١٩٢٢ بإعلان باسترناك أن القصيدة هى مقياس نبض الحياة.

تحوّل باتسرناك إلى الرواية فأخرج رواية «الطريق المستقيم» عام ١٩٣١، لكنها لم تصادف أى رواج.

وتحمس باسترناك لثورتى ١٩٠٥، ١٩١٧ فى البداية، لكنه سخط على ممارسات الحزب الشيوعى السوڤيتى وانشق عليه..

حين أخرج رائعته «دكتور زيڤاجو» عام ١٩٥٧ رفض اتحاد الكُتّاب السوڤييت نشر الرواية فى روسيا، فنشرها باسترناك فى

إيطاليا، فصادرت الحكومة السوفيتية، الرواية وما تبعها من مؤلفات لباسترناك.

وطردته من الوطن...

وما لبثت الرواية أن ترجمت إلى أغلب اللغات..

وبعد عام حاز باسترناك جائزة نوبل فى الآداب، لكنه اضطر إلى رفضها بضغط من الحكومة السوفيتية.

وليكسب باسترناك رزقه لجأ إلى ترجمة روائع الأدب العالمى إلى اللغة الروسية، وبخاصة أعمال الكاتب الألمانى جوته، والكاتب الإنجليزى شيكسبير.

عارض باسترناك الثورة البلشفية من خلال البطل دكتور زيفاجو، مطالباً بتصحيح مسيرة الثورة لتصبح أكثر إنسانية، وحاول البطل أن يحقّق السعادة من خلال الحب وجمال الطبيعة، وأحدثت الرواية شهرة عالمية؛ فقد كتبت إبان الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقى والغربى، وتلقفها النقاد الغربيون بالمديح، ومن هؤلاء النقاد الناقد الأمريكى إدموند ويلسون الذى عدّ الرواية عملاً ثورياً تنبأ بفشل الثورة البلشفية فى خلق مجتمع يسوده الحب والسلام، بينما هاجم النقاد السوفيتيون ونقاد المعسكر الشرقى الرواية ووصفوها بأنها تشويه للثورة واتهموه بالخيانة..

توفى باسترناك عام ١٩٦٠ ، وبعد سبع وعشرين سنة أى عام في ١٩٨٧ تم نشر روايته دكتور زيفاجو لأول مرة فى وطنه، وتبعتها بقية أعماله..

شخصيات الرواية

* يورى (يورا) زيفاجو.	
* الخال كوليا..	
* ميشاجوردون	: صديق زيفاجو
* مدام جويشار	
* لارا	: ابنتها.
* كومارو‌ڤيسكى	: محام.
* باشا آنتيبو‌ڤ	: سترلنكوف
* تونيا	: زوجة زيفاجو.
* جاليولين	: جندى.
* إيڤجراف	: الأخ غير الشقيق ليورى..
* ڤاسيا	: عامل مطحون.
* سامريڤياتوف	: صديق ليورى من يورياتين.

* ميكوليتسين : ناظر عزبة ڤاركينو
* ليبريوس : ابنة، قائد ثورى لجماعة إخوة الغابة.
* مارينا : زوجة أخرى ليورى

الجزء الأول ..

الفصل الأول

قطار الخامسة السريع

-١-

مضوا فى طريقهم ينشدون، وبدت أصوات أقدامهم وسنابك خيلهم والريح التى تهب مثل اللحن الحزين يصحب نشيدهم.

- من الذى سندفن..؟

- زوجة زيفاجو..

- لترقد فى سلام. إنها جنازة مهيبة..!

انقضت الدقائق الأخيرة فى لمح البصر، لن تعود. سمعوا نقراً خفيفاً حين تكوّم الثرى فوق التابوت الخشبى، يماثل نقر حبات المطر فوق الأوراق الخضراء...

ولأن القبر فى شوق للميتة، فقد استعانوا بأربعة مجارف! علت كومة الثرى، فتسلق صبى فى العاشرة قمتها.

رفع رأسه ومط عنقه، ثم حجب وجهه بيديه وانفجر باكياً. صفعت الريح يديه ووجهه بمطر بارد كالجليد..

أقبل رجل يرتدى السواد، إنه الخال كوليا الذى انطلق إلى الصبى وانتشله من المكان. الخال كوليا هو شقيق الراحلة...

-٢-

لم يدر الصبى يورا أن أباه هجرهم منذ زمن طويل وزعه بين الخمر والنساء فى سيبريا والخارج. لم يدر أيضاً أن أباه بدد ملايين الأسرة. لفّقوا للصبى حكاية:

- أبوك مشغول فى أعماله العديدة بعيداً...

بمقدور يورا أن يتذكر الممتلكات التى ارتبطت باسم أبيه: مصانع زيفاجو، بنك زيفاجو، أبنية زيفاجو، وكعك زيفاجو..

فجأة اختفت الممتلكات جميعاً، وأصبحوا فقراء..!

-٣-

وذات يوم فى صيف ١٩٠٣ وبعد وفاة الأم بشهرين، كان يورا يقود مركبته ذات الجوادين عبر الحقول بصحبة خاله كوليا. لمع النهر فى ضوء الشمس، يبهر العيون ويؤذيها.

كان ينحنى ويستقيم مثل اللوح المعدنى..

قال الخال كوليا:

- انظر، يا يورا، إن ذلك هو القطار السريع القادم من سيزران.

سيصل إلى هنا فى الخامسة وبضع دقائق.

بعيداً، عبر القطار السهل من اليمين إلى اليسار، بلونيه الأصفر والأزرق.

فجأة شاهداه يتوقف، بينما انبعثت عاصفة من البخار الأبيض من محركه، وبعد دقيقة تناهى إلى سمعهما صوت آلة التنبيه المعدنية.

قال الخال كوليا:

- هذا غريب، وهناك عطل. ليس من عادته أن يتوقف وسط الحقول هناك. لابد أنه قد حدث شيء ما.

-٤-

فى إحدى عربات الدرجة الثانية التى توقفت عبر النهر جلس ميشاجوردون، الذى يصحب أباه المحامى فى السفر. كان ميشا صبياً فى الحادية عشرة ذا وجه يغلب عليه الفكر وتتوّجه عينان سوداوان واسعتان. ها هو اليوم الثالث لسفرهما. إن روسيا،

بحقولها وقراها ومدائنها قد أصلتها الشمس، فبدت الرياح مترية ولافحة..

لقد ألقى الرجل المجنون بنفسه من القطار السريع عبر الباب المفتوح، وها هو القطار قد توقف. إن جثة الرجل ملقاه على العشب قرب ضفة النهر والدم الذى تجمد على جبهته يلوح مثل لطخ الوحل أو كورقة شجرة قد ذبلت...

أحاط بالجثة كوكبة من المتفرجين والملتاعين، بينما وقف رفيقه فى السفر يطل عليه بوجه جامد الملامح.. إنه محام متين البناء، ذو مظهر مترفع، كالحيوان المدلّل، فى قميص ينشع بالعرق، يكاد يموت من الحر اللافح، وهو يستخدم قبعته كمروحة ليجلب لنفسه بعض الهواء..

قال رداً على الأسئلة، بصوت يتخلّله الغضب، دون أن يلتفت حوله:

- لقد أسرف فى الشراب. ماذا تتوقعون..؟ النهاية الطبيعية لإدمان الخمر...

اهتز ميشا من الأعماق بالحدث، وبكى فى البداية من الصدمة والإشفاق. كان المنتحر، طوال الرحلة، لا يكف عن الحديث لساعات مع أبيه. كان يمطر أباه بأسئلة لا نهاية لها عن

مسائل قانونية جوهرية، وبعد أن يحظى بالإجابة تعود أعصابه إلى واحة الهدوء والاطمئنان، أما رفيقه في الرحلة فقد انطلق من إحدى عربات الدرجة الأولى لينضم إليهم، وسرعان ما استدرج رفيقه ليشرب. ذلك الرفيق لم يكن سوى الرجل ذى المظهر المترفع، الجلف، حليق الذقن، المحامى، ذى البزّة الأنيقة، والذى يقف بوجه جامد يطل على الجثة...

أخبر والد ميشا ولده بأن الميت كان مليونيراً معروفاً يدعى زيفاجو، سيئ السمعة، وقريباً من الجنون..

وصل طبيب ورجلا شرطة، وطرحت أسئلة، وأخذت بيانات. ثم جرّ رجلا الشرطة الجثة بعيداً.

وبكت امرأة...

وعاد الركاب إلى مقاعدهم، ونفخ المحصل صفارته، فتحرك القطار.

* * *

الفصل الثانى

القاتل

- ١ -

لم تضع الحرب مع اليابان أوزارها بعد، وأمواج الثورة تتدافع فى أنحاء روسيا، فى شدة وبلا توقف.

فى ذلك الوقت وصلت الأرملة: السيدة جويشار إلى موسكو من الأورال مع طفليها. ابتاعت مشغلاً فى أفقر الأحياء، بناء على نصيحة من صديق زوجها المرحوم، المحامى كوماروفسكى، إنه رجل أعمال من ذوى الدماء الباردة، والذى أغراها بأن ترسل ابنتها إلى مدرسة اختارها لها..

كانت السيدة جويشار متينة البناء، شقراء، وفي نحو الخامسة والثلاثين، تتمتع بجبن بشع وخوف عظيم من الرجال. ومن هنا فقد انتقلت من محب إلى آخر..

سكنت السيدة في شقة صغيرة من ثلاث غرف بجوار المشغل. وفي المشغل تعمل ماكينات الخياطة بلا توقف تحت أيدى العاملات. وعليكم أن ترفعوا عقيرتكم إن أردتم إيصال أصواتكم إليهن.

غالباً ما يجيء كومارووفسكي يصحبه جروه القبيح المنظر، لرؤية السيدة، وإذ هو يمضى عبر المشغل تتهامس العاملات:

- ها هو فخامته قد جاء..

- إنه وجع قلب للسيدة..

- التيس العجوز.

- قاتل المرأة..

- ٢ -

إن ماما... ما هى الكلمة..؟ إنه... حسن... عشيق ماما... إذن فلماذا يحدجنى هكذا..؟ إننى ابنتها على أى حال...

كانت لارا قد تعدّت السادسة عشرة، بيد أن جسمها رائع التكوين. يحسبها الناس بنت الثامنة عشرة. إنها حلوة المنظر، بعينيها العسليتين وشعرها الأشقر، وحركاتها الجذابة الرشيقة..

ذات يوم أحد فى منتصف شهر يوليو، ولارا ترقد على ظهرها فى الفراش تفكر، وتستدعى إلى ذاكرتها حفلة أقامها بعض أصدقاء كوماروفسكى. لقد دعا الأم إلى الحفلة، لكنها كانت معتلة...

قالت ماما:

- فلتصحب لارا، فأنت لا تكف عن إخبارى بضرورة الاعتناء بها. فاعتن بها الآن.

ولقد أسرف فى الاعتناء بها، يالها من نكتة..! وهما يرقصان سحرها بيديه الماهرتين اللتين جذبتا خصرها! لم تحلم قط بأن يوجد شخص بمثل وقاحته، وهو يدنى شفتيه من شفتيها..

عليها أن تتوقف عن الهراء، وعن التفكير بصدد الرقص...

قال لها:

- يا إلهى، يا لها من فكرة يا لارا..! لكم أود لو أفرّجك على شقتى، ونحن قريبان منها..

- ٣ -

كان باشا أنتيبوف صبياً نظيفاً، ومنظماً، عادى الملامح، أحمر الشعر، ذا طابع يغلب عليه المرح حتى ليستغرق محدثه فى عاصفة من الضحك..

فى السابع عشر من أكتوبر قامت مظاهرة ثورية ضخمة، ومسيرة على وشك أن تبدأ من أحد أطراف موسكو. كانت والدة باشا ضمن المتظاهرين، وبالطبع صحبها باشا.. أقبل الناس فى موجات يتدافعون كالطوفان، وجوه، وجوه، وجوه، بمعاطف شتوية وقبعات من جلد الخراف، رجال ونساء وطلاب، عواجيز، وأطفال، وعمال فى زيّهم وفتيات وصبيان من التلاميذ. أنشدوا الأناشيد الثورية. هبط الجليد وبدت الشوارع بيضاء، حين انضمت إليهم القوات على صهوات الخيل لم يعبأ بهم السائرون. وإذا بالصيحات تصم الآذان وهى تصيح:

- مرحى...!

وما لبثت رؤوس الفرسان أن ظهرت وكذا رؤوس خيلهم وسيوفهم المشرعة فى الهواء وبدأت المذبحة..!

بعد دقائق معدودات خلا الشارع. كشفت أشعة الشمس الغاربة كل شيء أحمر: قلنسوات الجند الحمراء، الراية الحمراء الملقاة فوق الأرض. بقع الدم الحمراء على الجليد.

كانت الأم تصرخ تحت سنابك الخيل:

ـ باشا..! باشا..!

لكن الصبى اختفى وسط الفوضى. على ظهرها فرقع سوط، فراحت تسب وتلعن...

ثم لمحت الصبى فى الجانب الآخر من الشارع. كان الخوف قد عقد لسانه، لكنه اندفع إلى أحضان أمه العجوز التى عادت به إلى البيت وهى لا تكف عن الصياح:

ـ القتلة القذرون..! الناس فرحون بالحصول على حريتهم، لكن القتلة الملاعين لا يسمحون بها. ما الذى يريدونه هؤلاء الحمقى..؟ إنهم جهلة. يسعون إلى إفساد كل شىء، وحسب..

– ٤ –

رأى الخال كوليا المتظاهرين يجرون من نافذته. حدّق ليرى إن كان يورا بينهم، لكن ما من أحد من أصدقائه هناك.

الخال كوليا عائد للتو من سان بطرسبورج، ولما لم يكن بحوزته شقة فى موسكو؛ فإنه أقام عند بعض أقاربه.

لقد عهد بيورا إلى أسرة جروميكو العاملة. كانت الابنة تونيا فى عمر يورا، وكان زميله ميشا جوردون يقضى بعض الأوقات بصحبتهما..

فكر الخال كوليا: إن الوسط ملائم ليورا تماماً.. أجل..!

ثم تحول عن النافذة.

- ٥ -

راحت قطرات الماء تنساب من الصنبور إلى الحوض. إن الجليد في ذوبان كما لو أن الفصل هو الربيع.

سارت لارا إلى بيتها كالحالمة، إنها تدرك ما حدث لها في البيت وحسب. الكل نائم، ولو سمعت ماما بما جرى لقتلتها ثم تقتل نفسها..

كيف حدث ذلك؟ إنها الآن، إنها ـ ماذا تطلق على نفسها..؟ الساقطة، لكن في الغد هي ذاهبة إلى المدرسة مع غيرها من الفتيات وهن بالنسبة إليها مجرد ملائكة أطهار..

خارج النافذة واصلت قطرات الماء خريرها. جلست لارا محنية وكتفاها يرتعدان، وتبكي..

- ٦ -

راح يفتح ويغلق أدراجه، ويفرغ الأشياء فوق السجادة غير شاعر بما يحتاجه. كل ما يحتاجه هو لارا، وهو لن يتمكن من رؤيتها هذا الأحد. إنه يذرع الغرفة كالليث في القفص..

همس وهو يغمض عينيه: لارا.

لقد شاهدها فى رؤيا ورأسها مسنود على ذراعه، كانت نائمة، لا تشعر بأنه يراقبها دون أن تطرف له عين.

كان شعرها ينساب على الوسادة، وجماله يعشى بصره كالدخان، وينهش قلبه. لماذا لا يستطيع إبعادها عن ذهنه..؟ عليه ألا يستسلم لهذه الوساوس.!

رفع الجرو رأسه ناظراً إليه. إنه يكره الفتاة ويكشر عن أنيابه ويمزق جواربها. إنها الغيرة.

زجره كوماروفسكى بعصاه، ثم رفسه..

ومرت أيام وأسابيع..

- ٧ -

كان ذلك أوان انتفاضة حى برسنايا الثورية فى موسكو. وبيت جويشار فى منطقة الثورة، وتستخدم ساحة البيت التالى كمركز للتجمع ومطبخ للحساء..

تعرفت لارا على بعض الصبية الذين يحضرون الاجتماعات. كان أحدهم باشا آنتيبوف الذى لم يزل مواصلاً تعليمه العالى.

إنهـا تـلاحظ تأثيـرها السـحـرى على الفـتـى. إنه طبـيـعى ولا يحاول إخفاء سروره لمرآها..

بدأت تمارس تأثيرها عليه دون أن تشعر، وذلك قبل أن يركع على ركبتيه أمامها بسنوات..!

– ٨ –

تواترت الأنباء بأن السيدة جويشار قد تجرعت سماً فى حجرة بفندق مونت نيـجـرو. أسـرع البـرفـيـسور جرومـيكو إليـهـا وألح الصبيان، لورا وميشا على مصاحبته..

كان الصـبيان يقطعان الوقت فى الصعود والهبوط عبر الممر خارج الفندق وهما بانتظار خروج البرفيسور.

حـاولت المرأة قتل نفسها ولم تفلح. وحـين خـرج رجل بدين، شديد الاعتداد بنفسه من الغرفة، حدّق فيه ميشا طويلاً..

وحين خرج الصبيان إلى الطريق، جذب ميشا ذراع صديقه يورا وهمس:

أتعرفـ من يكون الرجل..؟ لقد رأيته منذ أعوام.

إنه الذى أغرى أباك بالشرب وتسبّب فى وفاته.. إنه المحامى الذى رافقه فى القطار. كومارونسكى، فتذكره ـ لقد أخبرتك..!

واستقلا المركبة عائدين ويورا صامت..!

* * *

الفصل الثالث

حفل أعياد الميلاد فى منزل أسرة سفنتيتسكى

- ١ -

بحلول ربيع ١٩٠٦ وقبل وصول لارا للسنة النهائية فى دراستها، وخلال الشهور الستة التى قضتها مع كوماروفسكى أوشك صبرها على النفاد، وبينما هى جالسة فى حصة التاريخ فى نهاية الفترة الدراسية، أيقنت أن لا شىء يمكن أن يوقف علاقتها بكوماروفسكى حتى المدرسة أو أداء الواجبات..

وإذا بها تصل إلى قرار مفاجئ غيّر مسار حياتها. لقد نزعت صفحة من كراستها، وكتبت لجارتها:

«ناديا، أود أن أعيش بعيداً عن أمي.. ساعديني على إيجاد فرصة لأعطي درساً يكون مجزيا بقدر الإمكان، فلك معرفة بكثير من الأثرياء..».

كتبت لها ناديا: «إن والديّ يبحثان عن مدرسة خاصة لأختي الصغيرة فلِم لا تأتين..؟ سيكون هذا رائعاً».

- ٢ -

أمضت لارا ثلاث سنوات كعضوة في أسرة ناديا وشعرت بالأمان كما لو كانت في حصن. لم يحل عملها دون أن تلتحق بالجامعة..

هام باشا ـ الذي كان يصغرها بشهور.. حباً بلارا يصل إلى حد الجنون، وكان طوع أمرها فيما تطلب، وبعد أن تخصص في العلم صدع لأمرها ودرس اليونانية واللاتينية. حلمت لارا بأن يتزوجا بعد أن يحصلا على درجة التخرج ويصبحا مدرسين.

في صيف ١٩١١ صحبت لارا الأسرة إلى منزلها الريفي. أحبت المكان وهدوء الريف العبق بلا حدود. أقيمت حفلات ضخمة خلال الصيف، وذهبت لارا للاستحمام والتجديف، وإلى رحلات السمر الليلية على ضفة النهر وشاركت في مباريات الرماية بحماس كبير. كانت تمسك المسدس الصغير، وأجادت

التصويب، لكنها برغم ذلك لم تكن تدرى ماذا تريد، فازدادت حزناً وسقماً وسخطاً على الحياة. لكمّ ودت لو تدمر كل شيء وتنطلق إلى العالم لتبدأ شيئاً جديداً لم تجرّبه من قبل.

وعلى ذلك ا لمنوال، وفى عيد الميلاد عام ١٩١١ وصلت إلى قرار مصيرى: سترحل الآن وتبدأ فى مكان جديد تختاره هى، وتحصل على المال من كومارو‌ڤسكى، وهو لن يتردد فى تقديم العون لها دون قيد أو شرط.

انطلقت إلى منزله فى شارع بتروڤكا وتحت معطفها مسدس جاهز للاطلاق. لو رفض كومارو‌ڤسكى أو أهانها. على أى نحو، لأطلقت عليه النار.

- ٣ -

قال مدير منزله إنه بالخارج، لكن تستطيع لارا أن تنتظره، فصاحت فيه:

- لا أستطيع. إنني فى عجلة، أين هو..؟

كان فى حفلة أعياد الميلاد فى منزل عائلة سفنتيتسكى والبرد قارس، والشوارع مغطاة بالجليد، وآلمها الهواء فلم تقدر على التنفس. غاص قلبها من الخوف وهى تسير فى الشوارع الخالية،

وتمـر بالأبواب التى يتـصـاعـد منهـا البـخـار، فى المطاعم الرخيصة..

كانت أبواب ونوافذ المنازل بيضاء كالطباشير من الثلج والجليد، وانعكست على صفحتها أضواء أشجار أعياد الميلاد، وظلال المحتفلين المرحين.

- ٤ -

فى نحو الثانية صباحاً أحس يورا بطنين فى أذنيه. توقفوا عن الرقص ليتناولوا الشاى، ثم استأنفوا الرقص. لم يكف الصبية والفتيات عن القصف والضحك وهم يتناولون عصير الليمون البارد. فى وسط قاعة الرقص بمنزل سفنتيتسكى حمى وطيس الراقصين واشتدت حركاتهم.

قبل شهور، أنهى يورا وتونيا دراستهما الجامعية، تخصصت تونيا فى القانون ويورا فى الطب.

كان يورا يرقب تونيا وهى تراقص شخصاً، وهى تنطلق فى رشاقة وتتطاير ملابسها وتهتز كذيل السمكة. انفعلت بالرقص حتى قبضت على يد يورا ومنحته ابتسامة مشجعة تاركة له منديلها الذى يعبق برائحة البرتقال. ضغط يورا المنديل إلى عينيه وشفتيه، وتاه فى العبير الفواح.

انطلقت رصاصة، فالتفت الكل ينظرون إلى الستار المعلقة بين قاعة الرقص وحجرة الاستقبال. عم السكون، ثم اندفع الناس فجأة يصرخون.

صاحت امرأة:

- إنها هناك، هناك، سوف أنتزع عينيك أيتها البقرة القذرة، لن تهربى..! ماذا تقول يا سيد كوماروفسكى؟ أنت..؟ صوّبت عليك؟ لا، لا أقدر أن أحتمل، إنها مأساة يا سيد كوماروفسكى، ليس لدىّ وقت لأسمع النكات..!

اندفع الحضور من حجرة الاستقبال إلى قاعة الرقص، يتبعهم مجموعة أخرى تقبض على لارا.

اندهش يورا. إنه يلتقى مرة أخرى بذلك الرجل الأشيب، المحامى كوماروفسكى الذى تسبب فى انتحار أبيه. من تكون الفتاة؟ يا لها من مسكينة وهى تلقى المتاعب بذلك الجمال والشموخ..!

وهؤلاء القساة يجذبونها بعنف كأنها لصة. كانت موشكة على الإغماء، وكانوا يحملونها إلى أقرب فوتيل. أسرع لتقديم يد العون، فأسرعت إلى تونيا بوجه شاحب وجسم ينتفض:

ـ عليك أن تدع كل شيء وترتدى معطفك، فثمة رسالة من البيت، فلنسرع فى التو..

نسى يورا كل شيء، وهرع يجمع أشياءه..

ـ ٥ ـ

ماتت والدة تونيا، وحين هرعا يصعدان السلم إلى حجرتها، كانت قد فارقت الحياة. لكم عانت من دماء الرئة، وقد فاجأتها أزمة عجلّت بوفاتها..!

راحت تونيا تصرخ وتضرب رأسها فى الأرض وهى لا تكاد تميّز من حولها.

دفنوا الميتة فى الطرف الآخر من البلدة في يوم غامت سماؤه، واكتست أشجار التنّوب خلف سياج المقبرة برطوبة وسواد مسوح الحداد..

إنها نفس الساحة فى الكنيسة التى ثوى فيها جسد أم يورا. ألقى يورا بنظرة باتجاه قبرها وهمس:

ـ ماما...

* * *

الفصل الرابع

باشــا

- ١ -

وقع باشا فى حيرة عظيمة. لقد عزمت لارا على قتل رجل يبدو غـريباً تماماً، ولقد عفا عنها الرجل ذاته؛ وكان يمكن لولا عـفوه أن يقـبـضوا عليـهـا وتسـجن. شكراً له، وها هى تواصل دراستها دون أن يمسها السوء.

قالت له لارا:

- إننـى شـريرة، وأنت لا تـعـرفنى وسـأحكى لك يوماً، وليس الآن. كل مرة أحـاول، وأبدأ بـالبكاء. عليك أن تنسانـى، فأنا غيـر جديرة بك..



وتبع ذلك ما يقطع نياط القلب، أعلنت لارا أنها لم تحبه، وفى الوقت عينه بكت بكاء مراً فكان من المستحيل أن يصدّقها.

لم يصدق باشا حرفاً مما قالت، وكان على استعداد ليكرهها، لكنه أحبها لحد الجنون..!

اتفقا على الزواج فى التو، وكان يوم الزفاف قائظ الحرارة، وكف الهواء عن الحركة، والشمس تصلى الكون بأوارها المحرق..

فى ليلة الزفاف وصل باشا إلى قمة الفرح وإلى هاوية اليأس. استجوب لارا، وسرعان ما انكسرت روحه. وانقضى الليل وهى تعترف بكل شىء..

وانقلب باشا إلى رجل آخر، وكان مندهشاً من أنه لا يزال يدعى باشا أنتيبوف..!

- ٢ -

لم يتبدل الجو فى اليوم الثالث، وذلك فى الخريف الثانى للحرب. كان الدكتور زيفاجو إلى الآن يعرف باسم يورا - يدعونه فى الغالب بـ«يورى آندريفتش»..

لقد وقف فى ممر المستشفى، خارج قسم الحريم حيث أدخل زوجته تونيا، وكان يتعجل العودة إلى مستشفاه، لكنه وقف مطلاً من النافذة بينما ينهمر المطر فى شدة وبلا توقف.

كانوا يدخلون الجرحى، فمستشفيات موسكو تغص بهم، يضعونهم في الممرات وحتى في أقسام الحريم.

وصلت أذنيه صرخات تونيا، لكنه لم يكن مسموحاً له برؤيتها. عض إصبعه حتى أدماه، ثم خرجت ممرضة فسمع صرخات الوليد..

قالت له في صوت منغَّم:

ـ إنه ولد. تهانئي. لن تستطيع الدخول وهي تمر بفترة عصيبة، وكذلك الحال مع المولود البكر.

من قمة سروره لم يسمع ما قالته الممرضة، فقد كان يهتف:

ـ إنها سالمة، إنها سالمة.

ـ ٣ ـ

حين سمعت لارا قرار باشا لم تصدق أذنيها في البداية لقد عُرض على كليهما العمل بالتدريس في يورياتين بالأورال، ولقد انقضت أربع سنوات هناك.

وها هي ابنتها كاتيا في الثالثة، ولارا تفضل البقاء في يورياتين حيث ولدت. لقد واصلت العمل وكانت سعيدة، وهذا هو ما حلمت به.

كان باشا شديداً في الحكم على الناس هناك، فقد أزعجه جهلهم وأساليبهم الخشنة. وهو يتعالى على المعلمين زملائه، وحالياً، في زمن الحرب، فإن مستواهم، وزهوهم واعتزازهم بروسيا لم يصادف هوى في نفسه. ماذا كان عليه أن يفعل..؟

وحين توصل إلى قراره، قالت لارا في نفسها:

- إنه جنون. لن أعبأ وسوف ينسى هو..!

لكن باشا أرسل أوراقه إلى الجيش، واستبدلته المدرسة بآخر، وصدرت إليه الأوامر بالتوجه إلى المدرسة الحربية في أوماسك..

صاحت لارا:

- باشا، باشا يا عزيزي، لا ترحل عنا، لا تفعل. ألا تخجل من التضحية بأسرتك لأجل فكرة جنونية..؟ أأنت مجبر على ارتداء زي ضابط، وأن تلوح بالسيف كالآخرين..؟ باشا، ماذا أصابك..؟ أهذا هو ما تحتاجه روسيا بالفعل..؟

فجأة أدركت أن حديثها بلا طائل. عضّت شفتها وبلعت دموعها، وشرعت في صمت تحزم أشياءه..

بعد أن رحل، بدت البلدة كلها في وحشة الصمت. توالت رسائله الأولى من سيبيريا، ثم أرسلوه إلى ا لمخابرات، وبعدها توقفت الرسائل.

بدأت لارا تنزعج وراحت تستعلم، لكن لا أحد كان على دراية بشيء.

الآن التحقت لارا بالتدريب على التمريض، وبعدها صحبت كاتيا إلى موسكو، وعهدت بها إلى صديقة. لقد قررت أن تبحث بنفسها عن باشا، والتحقت بالعمل فى قطار طبى ذاهب إلى بلدة على الحدود المجرية..

كانت رسالة باشا الأخيرة قد وصلتها من هناك..

– ٤ –

بدأ الخط الأمامى فى التحرك، واندفعت القوات الروسية لتخترق مواقع العدو، تتبعها وحدات التعزيز، لكنها تأخرت ووقعت القوات المتقدمة فى الأسر..

وكان باشا آنتيبوف ضمن الأسرى، وتوالت الشائعات أنه قد سقط صريع لغم انفجر وتم دفنه هناك، كان مصدر الشائعة صديقه جاليولين الذى راقب هجوما قاده آنتيبوف من خلال منظار ميدانى..

كان هناك لغمان ألمانيان انفجرا أمام المهاجمين وتصاعدت أعمدة الدخان والتراب الأسود فحجبت ماتلا ذلك.

همس جاليولين من خلال شفتين ترتجفان من التأثر:

يا إلهى: لقد انتهوا. تلك هى نهايتهم..!

وانفجر لغم ثالث عن قرب، فانطلق جاليولين من فوره إلى مخبأ أكثر أمنا..

عرف جاليولين آنتيبوف منذ الصبا، كما لقى لارا مرة أو مرتين، لكن أخبارها انقطعت عنه منذ تلك الأيام. حين أقبل آنتيبوف من يورياتين والتحق بالجيش راع جاليولين التغيير الذى طرأ على صديقه.

لقد انقلب الصبى الخجول الشبيه بالنساء إلى رجل ذكى، ماهر ذى أنفة وكبرياء، شجاع، وقاس، كان فى بعض الأحيان تسيطر عليه فكرة غريبة كما فى الحكايات الخرافية.

لكن الآن اختفى آنتيبوف وهاهو جاليولين وحده مع الأوراق والصور

- ٥ -

وصل قطار الصليب الأحمر إلى المبنى الإقليمى فى عربة الدرجة الأولى وحسب جاء ناس من موسكو بالهدايا للقوات، وبينهم ميشا جوردون.

كان يعلم أن صديقه زيفاجو ملحق بالمستشفى الإقليمى، فاستخرج تصريحا بزيارة المنطقة عاش مع زيفاجو لمدة أسبوع

فى كوخ، وفى الليلة الأخيرة رقدا فى فراشين متقابلين. كان القصف الذى لا ينتهى يقطعه بين الحين والآخر انفجار عميق يهز الأرض هزا..!

قال زيفاجو:

ـ هذا اللغم ألمانى على عمق أربعين مترا واسمه بج برتا.

سأله جوردون.

ـ ما هذه الرائحة التى تعم القرية بأكملها؟.. إنها نوع من الرائحة تثير الغثيان، كرائحة الفئران؟

ـ إنه القنب، وهم يزرعونه بكثرة هنا، وفى ساحة المعركة يتركون جثث القتلى بلادفن لتتحلل فى حقول القنب. ورائحة العفن فى كل مكان، وهذا طبيعى.

كانت النوافذ موصدة، والحجرة حارة، وتعبق بدخان التبغ. ايقظهما فى الليل صوت خطوات تعدو. الغضب يجتاح القرية. اخترقها الألمان وتم نقل المستشفى فى الحال..

قال يورى:

هكذا الحياة العسكرية، ما تكاد تعتاد مكاناً حتى تنتقل إلى آخر..

راحاً يجريان فى شارع القرية فى ظل الجدران. الطلقات تندفع أمامهما، واستطاعا رؤية انفجار الألغام مثل المظلات تلتمع فوق الحقول..

أركب يورى صديقه عربة وقال:

- سوف أتبعك فيما بعد، سأسرع بجمع بعض متعلقاتى.

وأسرع يورى بالعودة محتميا بالبيوت. وعلى بعد أمتار قليلة من منزله أصيب فى قدميه فى انفجار وهوى فى وسط الطريق، ينزف وقد غاب عن الوعى..

- ٦ -

كانت المستشفى فى بلدة صغيرة مجهولة فى المنطقة الغربية وفى يوم دافئ فى نهاية فبراير، وفى عنبر الضباط كان يورى يقضى فترة ما قبل العشاء، وفى الفراش المواجه له جاليولين يطالع الصحف التى وصلت، وهو يشكو مر الشكوى من الإمدادات التى لا تصل. انشغل يورى بمطالعة رسائل تونيا، ورفع بصره فجأة لينظر إلى الممرضة. كانت لورا.

لم تتعرف على أى منهما، لكنى يورى تذكر الفتاة التى صوبت فى حفلة عيد الميلاد..

قالت وهى تتجه صوب جاليولين:

كيف حالك؟

قال:

هذا حقا شئ غير متوقع، لاريسا فيدوروفنا، لقد عرفت زوجك، واحتفظت لك بمتعلقاته.

قالت:

مستحيل، عرفته..! لقد قتله لغم، ألم يحدث؟ودفن هناك..؟ أنت ترى أننى أعرف،فلا تخشى شيئاً وأخبرنى بكل شئ..!

خانت الشجاعة جاليولين، وقرر أن يسرد على مسامعها أكذوبة..قال:

لقد تم أسر آنتيبوف، فقد أحاطهم العدو..

لم تصدقه، وانهمرت دموعها، واندفعت إلى الخارج.

اعتادت أن تمر على العنبر كل مساء، وتتبادل بعض العبارات مع المرضى.

وذات يوم اندفع فوج من المرضى من الحجرات الأخرى، يجرون أو يتوكأون على عصى وهم يصيحون:

القتـال فى شوارع بطر سبـورج.! قوات بطرسبـورج انضمت للمتمردين.! إنـها الثورة..!

* * *

الفصل الخامس

موسكو

- ١ -

حبس يورى أنفاسه ودق قلبه وهو يمضى إلى الباب الأمامى، ويدق الجرس الجانبى. لاشىء، ما من مجيب. عاود الرنين إلى أن فتحت تونيا الباب على سعته. عقلت المفاجأة لسانيهما. لم يلبثا أن تعانقا وبعد لحظة كانا يتحدثان قال يورى:

قبل أى شىء، أأنتم بخير؟

أجل أجل، لا تنزعج فكل شىء على ما يرام، لماذا لم ترسل برقية؟

إنك أنحف يا تونيا عن ذى قبل لكنك تبدين أكثر ملاحة ونضرة كيف حال ساشا الصغيرة؟

على رسلك، نشكر الله. لدينا فتاة للعناية بنا، نيوشا، أنت لا تعرفها إنها تعنى بساشا

لقد أحضرت لك شيئا

ماذا بداخل الطرد، ثمة شيء يبرز منه ويشبه منقار الطائر إنها بطة! ياللجمال !لا أستطيع تصديق ما أرى. إنها تساوى ثروة الآن.

هل أدخلها إلى المطبخ؟

أجل بالطبع. سوف أبعث بنيوشا لتنظفها

يقولون من المتوقع حدوث الأهوال فى هذا الشتاء... فلن يتوفر الحطب والماء والضوء الكهربى، وسيذهبون ولن تجىء المؤن يتحدثون عن المواقد الحديدية الرائعة التى بيعت في السوق الرئيسى إنها صغيرة الحجم يمكنك أن تشعل جريدة لتطهو وجبة علينا أن نبتاع واحداً قبل أن تنفذ، ومن يدرى، بمشيئة الله، قد نعبر الشتاء سالمين بالطبع، سنفعل أتدرين؟ سنقيم حفلة ونطهو البطة وندعو الخال كوليا..

- ٢ -

خلال الأيام القليلة التالية، أدرك مقدار عزلته فقد أصبح الأصدقاء منغلقين ومهملين إلى حد مزعج، وتركوا عادة التفكير المستقل، في سعادة وقناعة، إلى غير رجعة:

أما القلائل الذين شذوا عن هؤلاء فتونيا ووالدها وكذا ثلاثة من زملائه الأطباء ففيهم الوضوح والصراحة، يمارسون عملهم بسلاسة و تواضع وهدوء.

أقيمت الحفلة بعد عودته بأيام، وتوافد عليها كثيرون مما يشير إلى أن العشاء لم يكن في الواقع إلا المناسبة التي أعادت اتصالهم به. كانت البطة في ذلك الحين حدثا غير مسبوق في الرفاهية، لكن نقص الخبز قلّل من بهاء الحفل.

لكن الشيء المحزن أن الحفل لم يكن يتناسب وظروف البلاد. في الخارج موسكو يلفها الجوع والظلام والسكون الحوانيت فارغة كان أفضل ما يفعله المرء أن يتلاشى بين الجموع ويتوه ويعيش كما يعيشون.

حين ودعهم الضيوف أسدلوا الستائر وفتحوا النوافذ كان الفجر يلوح شاحباً في السماء المكتظة بالسحب والمطر موشك على السقوط. أرعدت السماء ثم ساد السكون.

امتلأ الشارع الجانبى بأصوات الضيوف الراحلين لم تلبث الأصوات أن تلاشت.

قال يورى لتونيا:

فلنذهب للنوم، إن من أحبهم فى العالم اثنان، أنت وأبوك.

- ٣ -

استأنف يورى عمله فى المستشفى. سلم عقله من البلادة بفضل تدوينه ليومياته، وبعمله المضنى ومتاعبه، وزوجته، وطفلته، وندرة حديثه، وكتاباته.. ذات مساء ذهب يورى لزيارة صديق. كان ذلك فى أواخر أكتوبر. كان الشارع يكاد يخلو من المارة، فسار بسرعة وبشائر الجليد تلوح فى الأفق تدفعها الريح..

راح يدور ويلف فى الشوارع الجانبية التى لم يحص لها عدداً، إلى أن تحوّل الجو إلى عاصفة ثلجية. باغته ظهور صبى يحمل صحفا تحت إبطه وهو يصيح:

آخر: الأنباء...

نقده يورى النقود وهو يقول:

احتفظ بالباقى:

ناوله الصبى صحيفة مبلّلة بالماء، ثم اختفى فى العاصفة. توقف يورى تحت أحد مصابيح الشارع ليقرأ عناوين الصحيفة الرئيسية. كانت الصحيفة مطبوعة على وجه واحد وحسب وتحوى بيانا رسميا من سانت بطرسبورج بأن روسيا الآن تحت سيطرة السوفييت وديكتاتورية الشعب.

اندفعت الريح بشدة فألهب الجليد عينى يورى، وغطّت الصفحة المطبوعة بالجليد الذى أوقف القراءة. غلب يورى الانفعال باللحظة وشعر بهزة فى أعماقه لذلك الحدث الجلل. حاول أن يبحث عن موقع آخر يوفر له الضوء الساطع والابتعاد عن العاصفة، فلاذ بمدخل مبنى عال حسن الضوء ليطالع ما بقى من أنباء..

وسمع صوت خطوات تهرع من أعلى المبنى هابطة الدرج، وتوقف الغريب على قيد خطوات من يورى، ورفع يورى رأسه.

أمامه يقف صبى فى نحو الثامنة عشرة يرتدى كابا من جلد الرنة ومعطفا من الطراز الذى يرتدونه فى سيبريا مبطناً بالفراء. صبى أسود ذو عينين ضيقتين قرغزيتين.

يبدو كأن الصبى ظن يورى شخصا آخر.نظر إليه فى حيرة وخجل كما لو كان يعرفه لكن ارتج عليه فلم يتكلم. فحصه يورى

بنظرة باردة رادعة، فاستدار الصبى متحيرا ليذهب، ثم توقف وعاود النظر قبل أن يخرج ويصفق الباب الزجاجى الضخم خلفه

بعد لحظات نسى يورى الصبى وصديقه الذى جاء من أجله، وغادر المبنى.

وفى مواجهة منزل كبير هوى يورى فوق كومة من الخشب ثمة حارس يؤدى واجبه فى المنطقة

استدار ليذهب مبتعدا وهبت الريح دافعة سحابة من الجليد فى الهواء انتزع يورى حزمة من الخشب وزحف بها بعيدا

فى البيت أشعلوا الموقد، وأدنى والد تونيا مقعدة ليحظى بالدفء. استخرج يورى الصحيفة من معطفه وناولها له وهو يقول:

أرأيت هذا؟ إن هذه العجيبة التاريخية قد انفجرت واخترقت لتزلزل حياتنا اليومية. لم تبدأ من البداية بل من الوسط، وبدون تخطيط للوقت، ببساطة فى أول يوم عمل. تلك عبقرية حقيقية.

- ٤ -

انقضت ثلاثة شهور من الشتاء، مظلمة، مرعبة، تحمل البرد والجوع.. فى كل مكان انتخابات: لإقامة المساكن، والتجارة، والصناعة، وخدمات المدينة، وتم اشراك رجال فيها كمسؤلين،

رجال يرتدون السترات الجلدية السوداء، لهم سلطات واسعة بلا حدود وإيرادة حديدية مسلحون بالمسدسات، أهملوا لحاهم وهجروا فراشهم.

كانت الوجبات لا تخرج عن القمح المسلوق وحساء رؤوس السمك. قامت صديقة لتونيا بتدريبها على إنضاج الخبز فى الموقد الألمانى وبيعه لتغطية تكاليف إشعال الموقد الكبير. كان الخبز الذى تصنعه تونيا ممتازا، لكنه تعرض للكساد.

ساءت حالهم بالفعل ، فقد غطى الجليد الشارع واستحال السير حاول الناس الخروج لجلب لوازمهم فبدوا كالأشباح أو كالذين أوشكوا على الموت. المتاجر جميعا أغلقت أبوابها وخلت من البضائع، ووصل الجليد إلى واجهاتها الزجاجية .

الآن نفدت المؤن من بيت زيفاجو، وعانوا آلام الجوع. ذات يوم انطلق للبحث عن جذوع الشجر من محطةفنداقا. وضع الجذوع على عربة يجرها جواد.. وهو يسير خلفه وعينه على الحوذى خوفاً يفر بالحمل الثمين. لاحظ أن الشارع بدا مختلفاً وإذا به يترنح وقدماه تنوءان تحت ثقل بدنه

فكر: إنها النهاية. حمى التيفوس.

هوى، فرفعه الحوذى على العربة و ألقاه فوق الجذوع..

لم يدر يورى كيف وصل إلى البيت.

- ٥ -

ظل غائبا عن الوعى لاسبوعين. فى خضم الحمى تراءى له الصبى ذو العينين الضيقتين فى المعطف الذى خلا من الأزرار. أيقن أن الصبى هو ملاك الموت لكنه بدأ يشفى من مرضه. فى البداية استعصى عليه تذكر الأشياء، لكن سرعان ما راح يفكر ويسأل. غذته زوجته بالخبز الأبيض، والزبد، والشاى المحلى بالسكر: وأمدته بالقهوة. استمتع يورى بها جميعاً كأنها الشعر أو الحكايات الخرافية.

سأل تونيا:

أنى لك كل هذا؟

إنه أخوك غير الشقيق إيفجراف من أومسك. لقد أحب والد يورى الأميرة ستولبونوفا إنديزى،وولدت له طفلاً، إيفجراف..

قالت تونيا:

كان يأتى كل يوم وأنت مريض.

هل يرتدى معطفاً من جلد الرنة ؟

تماماً. لقد رأيته إذن. كنت فاقد الوعى طيلة الوقت. لقد حاول أن يحادثك ذات مرة، لكنك أفزعته حتى كاد يموت..إنه معجب بك، ويقرأ كل كلمة تكتبها ولقد أحضر لنا الكثير..!

أرز، وفاكهة، وسكر..! لقد ذهب الآن. إنه فتى غريب. يقول إن علينا أن نرحل لعام أو عامين عن المدن الكبرى، ففكرت فى الرحيل إلى فاركينو، وحبذ الفكرة.

فى إبريل من تلك السنة رحل زيفاجو بأسرته إلى عزبة فاركينو، قرب بلدة يورياتين، بعيداً فى الأورال..!

* * *

الفصل السادس

الرحلة

– ١ –

إنها نهاية مارس، وأسرة زيفاجو تتأهب للرحيل: يورى وتونيا، ووالدها، ونيوشا لتعنى بساشا الصغير. كان يورى ضد الرحيل، وانفجر يورى فى اجتماع للأسرة:

ألا زلتم مصرين على الرحيل؟ إن ما يزعجنى هو شكىَ التام، فنحن ذاهبون بأعين معصوبة إلى مكان مجهول بالنسبة إلينا. أما الثلاثة الذين كانوا يعيشون فى ڤاركينو فقد ماتت أمك ياتونيا ولحقتها الجدة، أما الجد كروجر فالله أعلم أميّت هو أم لا يزال على قيد الحياة...

إننا فى الحقيقة لا نعلم شيئا. إلى من آلت العزبة الآن؟ من يديرها؟ هل قطعوا أشجار الغابات؟ هل تعمل المصانع.؟ إنكم تثقون فى أن يساعدنا المدير القديم ميكولتسمين، فهل ما يزال هناك.؟ وهل مازال حيا حتى الآن.؟

لكننى لا أود المضى فى افتراض المشاكل والصعاب، فقد قررتم ووافقتكم، وعلينا اتخاذ الترتيبات للرحلة..

- ٢ -

ها هو القطار يمضى بهم منذ ثلاثة أيام ولم يتحرك بعيدا عن موسكو. من النافذة شاهدوا الحقول والغابات وأسطح بيوت القرية مدفونة فى الجليد..

من حظ زيفاجو وأسرته أن عثروا بجانب يمكنهم فيه أن يرتاحواويناموا، ولقد سعدوا بأن علاقتهم الأسرية لم تنفعهم.

لم يسبق لتونيا أن سافرت فى عربة بضائع من قبل، فأبوابها متحركة وسلالمها مرتفعة للغاية عن الأرض. وفى نظر تونيا لم تكن أفضل من العربة المخصصة للخيل.

ولثلاثة أيام طوّحهم القطار للخلف والأمام ومن جانب لجانب. الركاب نحو خمسمائة، من مختلف الأعمار، والظروف، والحرف.

كان منظرهم جديرا بالملاحظة - محامون وجهاء أثرياء من بطرسبورج جنب إلى جنبا مع الخدم: ما سحى الأرضيات، وعمال الحمامات، والمجانين الهاربين، وأصحاب المتاجر.

- ٣ -

فى عربة زيفاجو رجال عديدون تحت الحراسة، يقادون إلى الشرق ليؤدوا الخدمة الإلزامية. من بينهم صبى فى السادسة عشرة اسمه فاسيا.

إنه هنا تكفيرا عن غلطة عمه. ذات يوم فى الصيف الماضى استدعوا العم إلى مقر السوفيت المحلى ليوجهوا له بضعة أسئلة، فأخطأ المكان ودخل إلى مكتب المجلس المنتخب للخدمة الإلزامية.

بعد لحظة دخل الجنود وحاصروا الرجال وقبضوا عليهم، وذهبوا بهم إلى المحطة فى الصباح التالى.

توسل العم للحارس ليذهب لوداع زوجته. رفض الحارس إن لم يأخذ أحدهم مكان العم، وسرعان ما سلمهم العم وزوجته فاسيا وأطلق سراح العم.

وكانت تلك آخر مرة شاهد فيها فاسيا العم وزوجته.

وحين اكتشف فاسيا الخدعة انفجر باكيا وتوسل للحارس ليطلق سراحه دون طائل، فالحارس مطلوب منه عدد غير منقوص. ذلك هو السبب فى وجود فاسيا ضمن مجموعة الخدمة الإلزامية...

سرعان ما يعبروا المنطقة التى يقع فيها بيته، وها هى عيناه تبرقان من الانزعاج.

استدار إلى الحارس:

– أرجوك، بحق المسيح، أرجوك، إننى أتوسل إليك بحق الرب......

– وماذا تتوقع منى أن أفعل؟ أأنا مجنون؟ إن تركتك تذهب أنتهى أنا. سيضعوننى فى مواجهة جدار، و ....

– ٤ –

تركوا خلفهم حاضرة روسيا وعاصمتها فى طريقهم إلى الشرق. إنهم يرحلون فى عالم يموج بالاضطرابات، فى كل منطقة جماعات مسلحة لإحكام السيطرة. قد يقف القطار كثيرا فى أى مكان، ويصعد رجال الأمن يتفحصون أوراق المسافرين وأمتعتهم.

ذات يوم توقف القطار فى منطقة دمرها الحريق، بقايا محطة. خلفها قرية مهجورة مدفونة فى الجليد بعد أن دمرها الحريق. خرج ناظر المحطة من بين الأنقاض، قال:

– لقد جاءوا ونسفوا المكان.

– لعلك لا تعنى سترلنكوف!

– بل هو..

– لماذا.؟ ما جنايتكم.؟

–لم نفعل شيئا. إنهم جيراننا فى القرية هناك..

– ما الجريمة التى اقترفوها.؟

– فعلوا الكثير. لقد قضوا على اللجنة المحلية ورفضوا الانضمام إلى الجيش الأحمر، ورفضوا إمدادهم بالجياد..

– فهمت. نسفهم سترلنكوف من قطاره.؟

– بالطبع. والأنباء التى أحملها لكم ليست سارة. أخشى أنكم مضطرون للمكوث هنا ليومين..

– أنت رجل مهزار..

– على العكس، لقد عصفت بنا عاصفة جليدية لمدة أسبوع.. والجليد على امتداد الطريق ولا أحد يزيله. ونصف سكان القرية فارقوها.

استغرقت إزالة الجليد عن الخط الحديد ثلاثة أيام، وشارك فيها أعضاء أسرة زيفاجو حتى نيوشا. وكانت الأيام الثلاثة أفضل أيام الرحلة.

غلب الذعر والريب على القرويين من المخبرين، فتحاشوا الركاب، وركنوا إلى الصمت التام.

حين بدأت أكوام الجليد تنزاح، بدا الخط لمسافة بعيدة مستقيما ومحددا باستواء كالسهم.

ثم انقلب الطقس والمنظر فجأة. فالسهول انتهت، وإذا بالقطار ينطلق بين التلال والجبال. كفت ريح الشمال وإذا بالجو يسخن وهبت ريح الجنوب كأنها آتية من فرن مشتعل.!

ظل يورى راقدا على ظهره فوق فراشه نائما، والربيع فى حالة لا تطاق من الحر اللافح الذى أذاب الجليد وأسقطه فى أنحاء روسيا.

ارتجت الغابة من الأعماق واستيقظ كل ما فيها، فاندفع الماء إلى الصخور وملأ البرك وفاض.. زأر الماء وسخن وتبخر فى الغابة مندفعا فى صورة رذاذ.

أما السماء فتلبدت بالسحب. خيمت السحب المنخفضة فوق الغابات، وانطلق المطر منها دافئا، برائحة التربة والعرق، منهيا إلى غير رجعة بقايا الثلوج من الأرض..

صحا يورى، وفرد جسمه، ونهض متلكئا على ذراعه، ينظر وينصت..

- ٦ -

وهم يقتربون من منطقة المناجم، أبطأ القطار المسير، وتكرر وقوفه العديد من المرات.

ومن خلال حديث أهل الناحية علم يورى أن البيض حققوا النصر فى القتال، وأن قواتهم يقودها صديقه القديم جاليولين، وقد استولوا على يورياتين، لكنها استعيدت من قبضتهم.

ذات يوم قالت تونيا:

- لقد هرب فاسيا مع آخرين. ركز فكرك فى هذا.! وكذلك فعل الحارس. أستطيع أن أفهم. إنه حين يختفى الآخرون فإنه مضطر لينجو بنفسه.

كان الريف مغطى بحقول الربيع. فى مكان ما ارتفع ماء النهر وفاض على ضفتيه ووصل الماء إلى المحطة، وبدا القطار كأنه يطفو فوق الماء.!

قال يورى:

– إننى مسرور لهروبهم، سعادتى بالماء الجارى.. ارتفع صوت المحرك واهتز القطار وتوقف على منحنى تل. انطلقت من المحرك صرخات وذبذبات الفرامل، لكن الركاب لم يكونوا بحاجة إلى هذه الإشارات ليعرفوا أن القطار بحاجة إلى وقود..

انفتحت الأبواب واندفع الجمهور خارجا... وبينهم الطاقم المسئول عن المحرك بالمناشير... ثمة كومة من الشجر المقطوع فى الغابة... بدأ يورى وتونيا ووالداها فى نشر الشجر المقطوع...

* * *

الفصل السابع

لقاء مع سترلنكوف..

- ١ -

اشـتـد الـحـر، وفـسـد الهـواء في العـربة حـتى طار النوم من العـيـون.. ابتلت وسـادة يورى بالعـرق، وحـرصـا على ألا يـوقظ الآخرين انزلق من فراشه وانسلّ من أبواب العربة..

صادف عتمة ولم ير شيئا فظن أنه الضباب. كانت المحطة كبيرة، لكن شعور الفراغ ساد، كما لو أن القطار تاه فى الفراغ أو تم نسيانه.

على بعد منه جاءت صيحة ألم خافتة تردد صداها فـأيقن يورى بخبرته الحربية أن القتال ليس بعيدا وأن سبب الصيحة طلقة نارية..

نزل من القطار قفزا، وسار إلى مقدمة القطار. اعترضه حارس يحمل بندقية. سأله برقة:

– إلى أين..؟ أتريد المرور.؟

– ما هذه المحطة.؟

– لا تسأل. من تكون.؟

– إننى طبيب من موسكو. وأسافر وأسرتى بالقطار. إليك أوراقى...

– خذها إلى الجحيم. لست من السذاجة لأقرأ فى الظلام. هناك ضباب، ألا ترى.؟ ثم إننى لا أحتاج لأية أوراق لأعرف أى نوع من الأطباء أنت.. منكم أطباء يطلقون علينا النار. أود لو أهشم رؤوسكم وأستخرج أمخاخكم، لكن الأوان لم يأت بعد.

انقطع صوت الطلقات خلفه. يمكنه الآن أن يسمع خرير الماء فى تؤدة وهو يحيط بجوانب مراكب الصيد.

– ما هذا النهر.؟

– لا ريب فى ذلك. إننى أعرف صنفك. ما هذه المحطة؟ ما هذا النهر.؟ إلىّ بأوراقك..!

كان ينبح وهو ينتزع الأوراق: أنت مطلوب لرؤية القائد.!

- ٢ -

وأتاه صوت ضحك وحركة من عربتين، لكن توقف ذلك في اللحظة التي دخل فيها يوري والحارس. اقتاد الحارس يوري عبر ممر ضيق إلى غرفة نظيفة ومريحة حيث يعمل ناس حسنوا البزة ومهندمون في هدوء كامل..

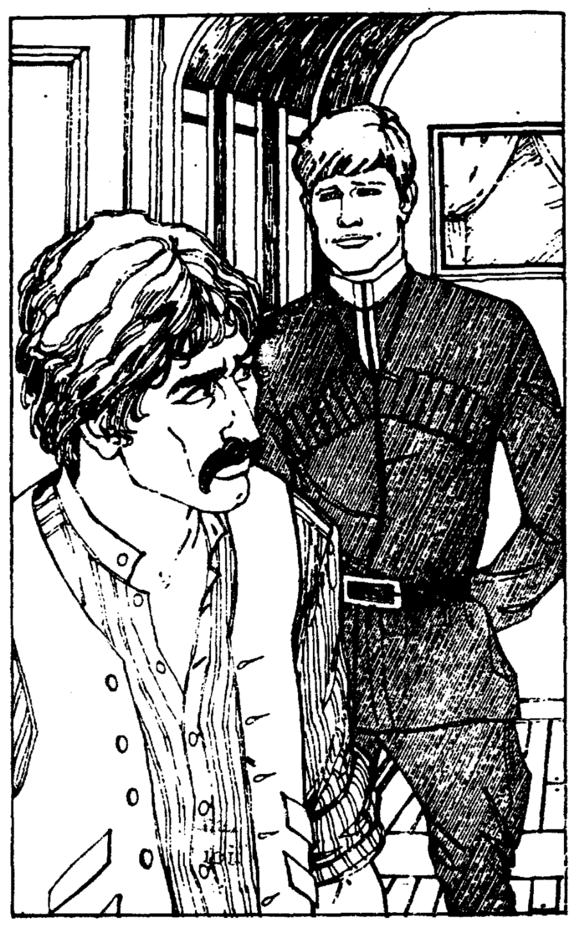
كان لدى يوري فكرة مختلفة عن سترلنكوف، خبير الحرب الشهير الذي لا ينتمي لحزب ما، والذي يثير الفخر والفزع في المنطقة، لكن مركز نشاطه، بلا ريب، يكمن في مكان آخر. ربما هذه غرفاته الخاصة ومكتبه.

صرف ضابط شاب الحارس، وبعدها نسوا وجود يوري. تشاغل يوري بالنظر عبر النافذة المواجهة، وهناك فوق أحد التلال تقع مدينة، مستها الشمس بلمستها الذهبية..

وفكر يوري بانفعال:

يورياتين، المدينة التي سمعت بها كثيرا من الممرضة أنتيبوف، كم هو غريب أن أراها في هذه الظروف..!

أقبل سترلنكوف بخطوات طويلة وثابتة، ووقف في وسط الغرفة. من الواضح أنه كان الصيغة النهائية للإرادة. إنه كما أراد لنفسه أن يكون: الرأس الوسيم المرجّل الشعر، خطوته السريعة،



ساقاه الطويلتان، فردتا حذائه اللتان تصلان إلى الركبة، وزيه الرمادى البديع.. إنه يترك فى محدثه انطباعا بأنه ثابت فى كل الأحوال. لقد أفلح فى مداراة غيظه لإيقاظه لتحقق مع الزائر الغريب. قال:

– هذا الرجل.؟ سخف..! إنه لا يشبهه فى شئ، حمقى!.

وضحك وقال ليورى:

– لك اعتذارى أيها الرفيق. لقد حسبوك شخصا آخر. لقد أخطأ حراسى، أنت حرفا ذهب. أين دفتر الخدمة الإلزامية؟ آه، هاك أوراقك. أتسمح لى بأن ألقى نظرة.؟ زيفاجو.... زيفاجو...

دكتور زيفاجو.... موسكو.... الكل نفس الشئ، فهل نذهب إلى غرفتى للحظة.؟ إننى فى العربة التالية. تفضل من هنا. لن أعطلك كثيرا.

– ٣ –

من، هو فى الحقيقة، سترلنكوف؟ كان واضحا أنه وصل إلى منصبه هذا لأنه كان رجلا مستقلا..

رغمَ أنه من مواليد موسكو فإنه ظل مجهولا على الدوام. لقد تخرج فى الجامعة وإلى مدرسة التدريب العسكرية، وفى الحرب

تم أسره ووصلت التقارير بأنه مفقود، وبأنه قتل. لقد عاد حديثا من سجنه بألمانيا..

وحين تزايد الضغط الأبيض من الشمال، وأصبح الوضع خطيرا عهد إلى سترلنكوف بمسئوليات جديدة، وكان لنشاطه أثره الفورى. كان يعلم أن الناس تلقبه بلقب راسترلنكوف أى «جلاب الموت» فتلقى المسألة بهدوء، ولم يزعجه الحال..

- ٤ -

راح سترلنكوف يردد وهما فى الغرفة:

- زيفاجو - طبيب موسكو - ذاهب إلى فاركينو. هذا عجيب. لأى سبب تفارق موسكو إلى ذلك المكان النائى.؟

- إليك الفكرة. إنه البحث عن الهدوء والاعتزال..

- يا إلهى، يالها من قصة رومانتيكية.! فاركينو.؟ إنها عزبة كروجر. ولو كنت متعاطفا مع البيض فلن أتفق معك؛ فقد نظفنا المنطقة منهم.

- هل تسخر منى.؟

- وبعدها أيها الطبيب، دخلنا الحرب وأنا ضابط طبيب. وهذا بالفعل عملى. إنك مسرح من الخدمة ما أسبابك؟

– لقد جرحت مرتين، وسمح لى الجيش بأن أسرح..

– هذا أوان الملائكة ذوى السيوف المشتعلة، لا أوان العواطف والأطباء المخلصين. ومع هذا، لقد أخبرتك أنك حر ولن أرجع فيما قلت، لكن تذكر، أنه باستثناء هذه المرة، فإن لدى شعورا بأننا سنلتقى مرة أخرى، وبأن حديثنا سوف يكون مختلفا. فاحذر..

وبعد أن ذهب زيفاجو، نظر سترلنكوف من النافذة إلى السماء، وبحث عن المنطقة التى عاشت فيها زوجته فى يورياتين. لنفترض أنها وطفلته لازالتا هناك.! ألا يقدر على زيارتهما.؟ لماذا لا يفعل الآن، وعين هذه اللحظة؟ أجل، لكن كيف يمكنه أن يفعل.؟

إنهم ينتمون إلى حياة أخرى. أولا عليه أن يمضى فى حياته هذه إلى النهاية. بعد ذلك يمكنه أن يواصل ما انقطع من حياته الأولى... وسوف يفعل يوما، لكن، متى..؟

* * *

الجزء الثاني

الفصل الثامن

الوصول

- ١ -

كان القطار الذى استقلوه يربض قرب المحطة، لكنهم شعروا فى ذلك الصباح ولأول مرة، بأن صلتهم بموسكو انقطعت.

حرص الركاب الذاهبون إلى المحطات الصغيرة على اللحاق بالقطار، فتزاحموا فى العربات وعلى الأبواب.. لوّحوا بأيديهم وتنادوا، وتبادلوا التحيات وهم ذاهبون كانوا يختلفون عن أهل المدن والعاصمة من حيث الحديث، والزى، والطعام والسلوك.

امتدت الأيدى لتعاون يورى على الصعود، فتسلق ثم أحاط زوجته بذراعيه..

قالت:

- أخيرا.! حسن، الحمد لله. إن الجميع يهنئونك على هروبك الذى صادفه التوفيق.

ثم استدارت فجأة وقالت وهى تقدم زوجها لراكب جديد.

- ها هو...

قدم الجديد نفسه، رافعا قبعته على رؤوس الناس، مندفعا إلى الأمام برغم الزحام:

- إننى سامديفياتوف... حسن، هل أرعبك سترلنكوف..؟ لا تكذب..

- كلا، لماذا.؟ بالتأكيد يمتلك شخصية قوية.

- على أن أجاريك. إنه ليس من هذه المناطق. إنه من مواطنيك فى موسكو.

كان القطار يتأهب للسير.

قال سامديفياتوف:

- لم ينته القتال بعد، وسيروقك المكان هنا، وكما تعلم، فليس الأمر سيئا كله.

– لن نعيش فى المدينة، إننا ذاهبون إلى فاركينو.

– لقد خمنت من تكون زوجتك لأول وهلة رأيتها فيها. إنها صورة حية من العجوز كروجر – نفس العيون والأنف والجبهة – إنها تشبه جدها. كل إنسان هنا يتذكره.

كانت المدينة تبدو من بعيد، وأحد أحيائها يشتعل، والدخان يطفو إلى السماء...

قال الرجل مواصلا حديثه:

– تلك هى السينما الكبيرة التى يحرقونها. لقد ساهم أبى فى بنائها. كان من كبار رجال الأعمال، وله فندق قرب المحطة..

– لكن ماذا عن اعتناقك للماركسية.؟

– وما نفعها هنا.؟

– لماذا نصف الإنسان بالغباء لمجرد أنه ماركسى؟ إن الماركسية علم فعّال..

– الماركسية علم.؟ العلم أكثر توازنا. لا أعرف تنظيما منغلقا على ذاته وأبعد عن الحقائق كالماركسية. طبيعى أن الناس شغوفون بأن يضعوا نظرياتهم موضع التطبيق ليفيدوا من التجربة، لكن هؤلاء الذين فى السلطة شغوفون أكثر بأن يظهروا

بلا أخطاء، فيديرون ظهورهم للحقيقة بقدر ما يستطيعون. إن السياسة لا تهمنى، فلا يعجبنى أولئك الذين لا يعبأون بالحقيقة.

لم يحمل سامديفياتوف حديث يورى على محمل الجد، وعده مهارة لغوية، فأنصت وهو يبتسم وقال:

– علىّ أن أرحل الآن، ومحطتكم هى التالية بعد نزولى، فلا تتأخروا عن النزول فيها..

– ٢ –

وقفت تونيا على رصيف محطة تورفيانايا تحصى الأسرة والمتاع مرة ومرات. لم تنتبه إلى أن القطار يغادر المحطة، وحين أدركت الأمر وجدت نفسها تنظر إلى الحقول الخضراء والسماء الزرقاء فى الفضاء الفسيح.

كانوا وحدهم الذين نزلوا فى تورفيانايا، والمحطة مدفونة فى الغابة. تحركت ظلال الأشجار بخفة فوق أيديهم ووجوههم، وعلى الرصيف برماله الصفراء النظيفة الكئيبة.

أدركت تونيا كثيرا من الأشياء فى وقت واحد: صيحات الطيور الرنانة، ووحشة الغابة، والصمت المطبق.. صاحت:

– يا للروعة.!

ولم تعقب، وانفجرت فى البكاء. خرج رجل فى زى ناظر المحطة على صوت البكاء. رجل عجوز وضئيل.. لمس الكاب الذى يعلو قمته اللون الأحمر فوق رأسه، وسأل بلهجة مهذبة:

- أترغب السيدة الشابة فى شئ من مستودع الأدوية بالمحطة.؟

قال والدها:

- لا، ولك الشكر، وسوف تتحسن فى ظرف دقيقة، لكننا بالتأكيد نمر بظرف عصيب. هذه ابنتى وهذا زوجها وابنهما الصغير، ونيوشا التى تعنى بها.

- كيف حالكم.؟ كيف حالكم.؟ فلتفرحوا. كنت بانتظاركم. لقد حدثنى الرفيق سامديفيا توف بالتليفون بأن الدكتور زيفاجو قادم وأسرته من موسكو، وأوصانى بتقديم كل عون ممكن لكم.

- تعرف سامديفياتوف إذن.؟

- ومن لا يعرفه، ذلك العامل المدهش.! إنه أملنا الوحيد، وسندنا.. ولولاه لكنا فارقنا الحياة منذ زمن بعيد. قال لى: اعطهم كل عون ممكن، لذلك إن كنتم تحتاجون جوادا أو شيئا..... إلى أين تتجهون؟

– فاركينو، أهى بعيدة من هنا؟

– فاركينو..! إذن فأنت من تذكرنى به ابنتك. إنك يا إيفان إرنستوفيتش كروجر وأنا قد شيدنا هذا الطريق معا. سوف أحضر لكم جوادا فى التو..

– ٣ –

كان جوادا أبيض، ولا يكف سائقه عن الغناء. تعلق الركاب بجوانب العربة وهى تتأرجح فى طريقها عبر الغابات والحقول..

تمت مقابلتهم بأسرة ميكولتسين فى فناء منزل المدير فى مشهد مأساوى. كانت زوجته عائدة فى المساء عقب نزهة فى الغابات بفستانها الصيفى الخفيف، وشعرها الذهبى كأشعة الشمس، وقد هرع زوجها إلى الفناء للقياها.

عند سماع صوت العربة، صمت الاثنان فى دهشة. وقطع الصمت بقول ميكولتسين:

– لا أفهم، ماذا تظنون.؟ الجنوب، حيث يتوفر الخبز؟ ما الذى جاء بكم هنا.؟ ألم تقفوا لتفكروا أى عبء تشكلون علينا؟

– لكن السموات فوقنا.! إنكم لا تفهموننا، فكل ما نحن بحاجة إليه شئ بسيط للغاية، ركن قديما خاليا وشريطا من الأرض لا

يطمع فيه أحد لنزرع به طعامنا وحمل عربة من الحطب من الغابة، هل هذا حقا يعد طلبا مغاليا فيه.؟

صاحت زوجته:

– هذا مجاف للعقل، ولا يمكن تصديقه. هل تدركون الخطر الذى جلبتموه علينا؟ فكرة ممتازة، أن يرمونا بالنار فداء لكم..

– بحسبك هذا يا هيلين. لكن زوجتى على حق تماما. لن نصحبكم إلى الغابة لتأكلكم الدببة. باستطاعتنا أن ندخل، وسنقرر فيما بعد أين يمكنكم أن تحطوا رحالكم..!

– ٤ –

فى ذلك المساء خرج زيفاجو ووالد تونيا للنزهة. حين عادا كانت تونيا تحتسى الشاى مع المضيفين، وهيلين تتحدث عن الكاميرات والصور الخفيفة.

– ما هو مصدر معلوماتك الغزيرة عن الفيزياء؟

– كان لنا مدرس علوم ماهر فى يورياتين، إنه ببساطة ذلك الرجل العجيب، أنتيبوف، أكان هذا اسمه؟ لقد كان متزوجا بمعلمة كذلك. وقعت كل البنات فى حبه. لكنه رحل إلى الحرب وقتل.

البـعض يرددون أن ذلك المـرعب سـتـرلنكوف هو نفـسـه آنتـيبـوف الذى خـرج من بين الأمـوات. لكن ذلك مـجـرد حكاية سخيفة... ومستحيلة.. لكن من بإمكانه أن يقول؟. ربما شئ ما ممكن.. أتريدون بعض الشاى؟

* * *

الفصل التاسع

فاركينو

- ١ -

فى ذلك الشتاء بدأ يورى يكتب المذكرات اليومية، كتب:

«إننى ألتزم الهدوء بخصوص كونى طبيبا، لأننى أود الحفاظ على حريتى. لكن هناك دائما روح طيبة فى مكان ما تعلم بأن ثمة طبيب فى فاركينو، فأقبلوا سائرين مسافة ثلاثين كيلومترا يبحثون عنى، وقد جلبوا معهم دجاجة أو بيضا أو قليلا من الزبد كأجر. لا اقدر على الرفض، فهم يعتقدون أن الشفاء لن يتحقق إلا إن دفعوا من أجله. لكن كان عوننا الأكبر.. هو سامديفياتوف، الدعامة الحقيقية للثورة، والذى حاز ثقة سوفيت فاركينو. بكل

سلطاته يمكنه أن يحتل فاركينو ويسيطر عليها بمن فيها ولا نملك نحن أن نعارض، لكنه ينطلق إلى مكان ما ويعود جالبا لنا شيئا ما...»

- ٢ -

بعد قليل كتب يورى:

«نعيش فى غرفتين فى بناء ملحق بمؤخرة منزل قديم. لقد أخفينا البطاطس قبل موسم المطر والطقس البارد. حفرنا لها وغطيناها بالبطاطين القديمة والقش.

علقنا الكرنب الطازج، ودفنا الجزر فى الرمل الجاف، وقمنا بتخزين الخضروات الأخرى فى السطح. يوجد ما يكفى من الحطب إلى الربيع..

فى أمسيات الشتاء نتحلق حول المصباح، والواجب أن نشكر سامديفيا توف، الذى جلب لنا البترول..».

- ٣ -

وحين اقترب الربيع، كتب:

«أظن أن تونيا على وشك الولادة. أخبرتها فلم تصدق، لكننى واثق، فوجهها يشحب، وجلدها يخشوشن، وعيناها تبرقان بطريقة مختلفة.

ما الذى يشل قدرتى على أن أكون نافعا كطبيب أو كاتب؟ إننا الآن فى زمن رواج الكلمات المستهلكة البالية: (فجر المستقبل) و (بناء عالم جديد) و (حاملوا مشاعل الإنسان).

ولو سمعت تلك الشعارات للوهلة الأولى ستقول:

[يالها من ثروة من الخيال.!]، لكنها فارغة ومتبجحة. ولا خيال فيها، لأن الفكرة فيها تأتى فى المرتبة الثانية».

- ٤ -

ها هو الربيع ولا وقت للكتابة. لكنه يحاول:

«بالأمس، وتحديدا فى وسط الحقول دفع رجل مريض زحافته إلى الفناء وسط الوحل والجليد الذى ذاب..

فحصته، وألقيت نظرة على قنينة الدواء على رف النافذة [لا تسألونى من أين أتت، فكل ما يصلنا من سامديفياتوف]..

ثم شاهدت زحافة أخرى فى الفناء. إنها لأخى إيفجراف، الذى أقبل إلينا من حيث لا ندرى. أمطرناه بالأسئلة: من أين جاء؟ وكيف.؟

فابتسم كعادته وأجاب بإجابات مبتسرة..

ظل معنا أسبوعين، ثم اختفى كما لو أن الأرض قد بلعته. وعدنا أن يخفف عنا ما نلقاه من شظف العيش، وبرّ بوعده. لاحظت أن نفوذه يفوق نفوذ الرفيق سامديفياتوف ذاته، وأن نفوذه الذى بلا حدود واتصالاته كانت غامضة للغاية.. إنه أخى غير الشقيق، ونحمل نفس اللقب، وحتى الآن لا أعرف عنه شيئا..».

وإلى هنا توقفت مذكرات يورى ويومياته، ولم يواصلها....

* * *

الفصل العاشر

صديق فى يورياتين..

- ١ -

لحجرة المطالعة فى المكتبة العامة بيورياتين نوافذ كثيرة، وتتسع لمائة قارئ. فى صفوف رصت الطاولات الطويلة لتنتهى عند النافذة.

اعتاد يورى المجئ على جواد إلى المدينة أعاره له ميكوليتسين، وتركه فى فندق سامديفياتوف. كان يطالع طيلة الصباح ثم يعود أدراجه، عند الظهيرة، إلى فاركينو.

كان يورى جالسا فى أقصى الحجرة بعيدا عن الباب. أمامه عدة كتب وتقارير عن الأجناس والكتب التاريخية الخاصة بالمنطقة.

لاحظ يورى تغيرا فى الحجرة، ففى أقصاها قارئة جديدة عرفها يورى فى التو: آنتيبوفا.

كانت جالسة وظهرها إليه. داخله باعث يحثه على محادثتها، لكنه آثر ألا يزعجها.

جلست، مستغرقة فى المطالعة كطفل، وقد أحنت رأسها قليلا على كتفها الأيمن. فجأة كفت عن القراءة وبحلقت فى السقف، ثم أراحت خدها على يدها، وراحت تكتب فى كراستها بحركة سريعة بالقلم الرصاص...

قال يورى فى نفسه:

«إنها لا تحاول لفت الأنظار إلى جمالها. ليس بها غرور، وهذا يجعلها أكثر جاذبية عن ذى قبل»..

استغرق فى القراءة نحو الساعة، ثم جمع كومة الكتب وأعادها إلى أماكنها فوق الرف.

لكنه حين تطلع فى الحجرة لم تكن لارا هناك. كانت كتبها فوق الطاولة. كانت عن الماركسية. لا ريب أنها عادت إلى التدريس. كان عنوانها مدونا على استمارة الإستعارة بين الكتب.

كَتب يورى العنوان فى دفتره:

«شارع التاجر، المواجه للمنزل ذى الأعمدة الصخرية»..

- ٢ -

كـان اليـوم شـتـويا وباردا من شـهـر مـايو. فـرغ يورى من المطالعة وهم بالمغادرة إلى بيتـه، وإذا به فجأة وقد غير مساره إلى منزل لارا.

«كانت الأشكال النسائيـة الصـخرية تفوق مـثيلاتها من البشر حجما بكثير، وهـى تقف صفا محيطة بالمنزل فى الطابق الأول. بينما هو يستدير إلى البوابة جرت دجاجات عديدة تحت قدميه.

حين بدأ الغبار الذى ثار يهدأ رأى لارا بجوار البئر تملأ دلوين بالمـاء، وقـد أهملت شعـرها مربوطا فى منديل معقود من مقدم الرأس ليمنع الغبار عنها. فجأة أطارت الريح المنديل إلى أقصى الفناء، عدا يورى خلفه وأحضره إليها..

نظرت إليـه مندهشة، لكنها ظلت طبـيعـية كـالعهد بـها، ولم تتراجع خوفاً أو انزعاجاً..

قالت:

ـ زيفاجو..!

ـ لاريسا فيودوروفنا.!

ـ ماذا أتى بك إلى هنا؟

ـ أنزلى الدلوين، سأحملهما عنك..

ـ بل دعهما، فلن تفعل غير أن تغرق السلالم. مالذى أتى بك..؟ إن لك فى المنطقة أكثر من عام، ولم تجد دقيقة لتضعيها وتجئ..

ـ كيف علمت..؟

ـ شاهدتك فى المكتبة..

ـ فلماذا لم تحدثينى؟

ـ لا تقل إنك لم ترانى.!

ـ سارت مترنحة تحت ثقل الدلوين، إلى المنزل أمامه، ثم وضعتهما على أرضية المنزل..

قالت:

ـ إنه منزل قديم. أنظر إلى هذه الفجوة بين الطوب، هنا نضع ـ كاتيا وأنا ـ المفتاح حين نكون بالخارج،تذكر هذا، فلربما أتيت ذات يوم وأنا بالخارج. يمكنك أن تفتح الباب وترتاح. مشكلتنا الوحيدة هنا الفئران،فهنا الآلاف والآلاف منها، ولا نستطيع منها خلاصا.والسبب هو الجدران القديمة. هلم نصعد إلى الشقة..

- ٣ -

كـانت الغـرفـة تطل على الفناء وعلى الأسطح المنخـفـضـة للمنازل الخلفية،وعلى العنزات والخراف في الحقول قرب النهر. تذكر يوري وصوله في القطار، فبدأ في التو يصف الرحلة للارا، وبدون أن يفكر حدثها عن لقائه بستر لنكوف:

ـ هل رأيتـه.؟ يا للغـرابة.! لكن ربمـا الأكـثـر منه غـرابة جاليولين، لقد تحول إلى حاكم أو ما يشبه الجنرال..

ـ اعرف. لقد سمعت بذلك، هل شاهدته.؟

ـ كثيراً. لا تستطيع أن تتخيل كم من الناس استطعت إنقاذهم بفضله، وكم منهم أخفيت. لقد ساعدني جاليولين كثيراً، فليباركه الرب. إنكما صديقان قديمان، كما تعلم. حين كنت فتاة صغيرة، كـان يجـاورنا. لكم هو مـدهش أن يصـبح إبن مـدبرة المنزل من الجنرلات البيض..!

ـ لقد رتبنا أن نساعد الكثير من الناس. لي أصدقاء واتصالات عـديدة في كل حكومـة. لا يوجـد سوى في الروايات الرديئـة أن ينقـسم الناس إلى مـعـسكرين. في الحـيـاة الحـقـيـقـة كل شئ مختلط..آه.. دخلت بنت في نحو الثامنة. ليعنيها الضيقتين نظرة مرحـة، وحين تضحك تكون النظرة جانبـيـة. بحلقت في يوري

ـ ها هى إبنتى كاتيا، وآمل أن تصبحا صديقين!

ـ ماما، لقد أخذت المفتاح من الفجوة وإذا بفأر ضخم هناك. كدت أموت من الرعب..!

كان وجهها مضحكا وهى تنظر فى رعب زائف وبعينين واسعتين.

ـ إذهبى الآن، وسأستبقى العم يورى على العشاء..

ـ شكراً، كنت أرجو أن أبقى هنا، لكننا نتناول العشاء فى السادسة، وسأحاول ألا أتأخر، والعودة إلى هنا تستغرق ثلاث ساعات..

ـ يمكنك أن تمكث نصف ساعة..

ـ بودى أن أفعل.

ـ ٤ ـ

ـ والآن سوف أكون صريحة معك. إن سترلنكوف الذى قابلته هو زوجى، باشا آنتيبوف، باشا الذى ذهبت للبحث عنه طوال القتال، حين رفضت أن أصدق أنه مات.

ـ لقد سمعت شيئاً من هذا القبيل، لكننى لم أصدق ما سمعت. لكنه كلام فارغ. لقد شاهدت هذا الرجل. كيف لأحد أن يربط بينكما بأى نوع من الروابط..؟

ـ كما قلت، إنها الحقيقة. سترلنكوف هو زوجى. معظم الناس يعرفون وأنا أوافقهم، وكاتيا تعرف وهى تفخر بوالدها كل الفخر.

ـ إنه الذى استولى على يورياتين ونسف البيوت والمزارع. ويعرف أننا هنا، لكن لم يحاول أن يعرف إن كنا أحياء، وهذا يبرهن للناس على شخصيته، ولو سألنى لأجبته بأن يظل على حاله.

ـ إنه الآن فى سيبريا، وسمعت أنه يفعل ما تقشعر له الأبدان. إنه يقاتل ويضرب جاليولين المسكين، صديق طفولته، وجاليولين يعرف من يكون، كما يعرف أنى زوجته، لكنه لم يشعرنى بذلك مطلقا، برغم أنه يصاب بالجنون حين يسمع إسم سترلنكوف.

أظن أنك تفكر بأن باشا لا يحبنا، فهل نسينا؟ حسن، إنك مخطئ، إننى أعرفه معرفة تامة، وأعرف ما يريد، وهذا بالتحديد لأنه يحبنا، ولا يتحمل أن يأتى عائداً إلينا بيد خاوية.

إنه يريد العودة منتصراً، مزهوا بالمجد ليجعلنا نتعجب..! مثل طفل..!

ـ دخلت كاتيا مرة أخرى فحملتها لارا، وقبلتها قبلة عنيفة أدهشت الطفلة، وراحت تؤرجحها..!

ـ دخلت كاتيا مرة أخرى فحملتها لارا، وقبلتها قبلة عنيفة أدهشت الطفلة، وراحت تؤرجحها..!

- ٥ -

كان يورى يقود جواده عائداً من يورياتين. لقد زار لارا مرات لا تحصى، ولم يعبأ كثيراً بما سيتبع هذا من أحداث. كان ذلك بعد شهرين من أول زيارة قام بها إلى لارا.

كان يخدع تونيا، وكان ما يخفيه خطيراً. إنه شئ لم يسمع بمثله بينهما. لقد أحب تونيا إلى درجة العبادة، فهى توفر له الأمان وراحة البال وهذا يعنى له الكثير. ولو اضطر للدفاع عن كبريائها فإنه قادر على استعمال يديه للقضاء على أى شخص وإبادته..!

فى البيت يشعر كأنه مجرم، وخلال الوجبات كثيرا ما يلتصق الطعام فى حلقه، فيضع الملعقة جانبا ويبعد طبقة.

تسأله تونيا متحيرة:

ـ ما بالك.؟. بلا ريب تلقيت أنباء سيئة فى المدينة.

هل قبضوا على أحد.؟. هل قتلوا أحدا.؟. خبّرنى! هلل يخونها لأنه يفضّل عليها امرأة أخرى؟ كلا، فإنه لم يقارن بين

الإثنتين، ولم يختر بينهما. لقد تغيرت الأشياء، وسيعترف بكل شئ لتونيا، ويرجوها أن تصفح عنه، ولن يعود لرؤية لارا.

لقد أخبر لارا ذلك الصباح بأنه سيصارح تونيا بكل شئ. حاولت أن تنصت إليه فى هدوء، والدموع تجرى فوق خدّيها، وهى تقول برقة:

- افعل ماتعتقد أنه الأفضل، لا تقلق من ناحيتى، فسوف أتغلب على الأمر..

وها هو عائد إلى تونيا عازماً على أن يفضى إليها بالحقيقة.

وبينما الشمس فى الغروب امتلأت الغابة برداً وظلاماً، وأصبحت رائحة أوراق الشجر عطنة. ومن بعيد بدأ طائر فى الغناء.

فجأة لمعت فى ذهن يورى فكرة ،، فيم العجلة..؟ إنه يستطيع أن يبر بالوعد الذى قطعه على نفسه، لكن من قال إن عليه أن ينفذه اليوم.؟ إنه أنهى حواره مع لارا بدفء وعمق المشاعر.

وعلى أمل أن يرى لارا مرة أخرى قفز قلبه من الفرح. مال يورى للأمام ملقيا زراعيه حول عنق الجواد، فظن الجواد أنها إشارة له ليسرع فأنطلق كالسهم.

سمع يورى صيحات، لكنه ظن الأمر من صنع خياله. انطلقت رصاصة قرب أذنه كادت تصيبه بالصمم، فجذب العنان وأوقف الجواد.

أعترضه ثلاث من الفرسان. فتى، ورجل فى سترة ضابط وكاب من الفراء، ورجل بدين بقبعة واسعة مرخية فوق جبهته.

قال الضابط:

ـ لا تتحرك أيها الطبيب الرفيق، ولو أطعت الأوامر لسلمت، وإن لم تفعل لأرديناك قتيلاً. إن طبيب جماعتنا إخوة الغابة قتل، وسنضمك إلى الخدمة العامة فى جيشنا كطبيب. إنك الآن مع أنصار الثورة: إخوة الغابة، فترجل عن جوادك.!

* * *

الفصل الحادى عشر

إخوة الغابة

-١-

مر عامان تقريباً منذ أن وقع يورى سجيناً فى أيدى الرفاق. لم يكن سجنه محوطاً بالجدران، ولا حارس موكل به، ولا إحصاء على حركاته وسكناته.

كانت قوة الرفاق فى تصاعد مستمر، ولم تنفصل عن الناس العاديين والجماهير وهى تجتاح أراضيهم ومنازلهم، لقد اختلطت بهم وذابت فيهم.

لم يكن سجن يورى، وتبعيته فى الواقع مختلفين عن أشكال القهر فى الحياة التى لم تكن ظاهرة للعيان. وبعد أن فشل فى

الهـروب ثلاث مـرات وتـم ضـبطه، لم يتـعـرض لأى نـوع من العقاب، فلم يعاود محاولة الهروب.

لقـد ارتبط بصلة حـمـيـمـة برئيس الرفـاق ليـبـريـوس، إبن ميكوليتسين. رافضا صحبته لليبريوس وألح عليه ليبيت فى خيمته وضاق يورى بهذه الصحبة الإجبارية.

- ٢ -

خلال هذه الفترة كان الرفاق يتحركون بانتظام ومثابرة صوب الشرق. كانت القرى والمدن الصغيرة على طول الطريق إما للحمر أو للبيض طبقا لظروف الحرب. لكن كان من العسير بمجرد النظر أن تعرف انتماء الناس لأى من الفريقين المتحاربين.

إنهـمك يورى فى العـمل، فـفى الشـتـاء داء التـيـفـوس، وفى الصيف أدواء أخرى، بالإضافة إلى تزايد عدد الجرحى خاصة بعد أن تجدد القتال.

وبرغم الهزائم التى منى بها الرفاق وانسحابهم المستمر أمام فلول البيض، فإنهم لم تنكسر شوكتهم لتزويدهم بالمقاتلين الجدد من الأهالى ومن الفارين من العدو..

وتضـاعف عـدد الرفـاق، وخلال الثـمـانيـة عـشر شـهـراً التى قضاها يورى بصحبتهم، ليصل إلى العشرة أمثال.

- ٣ -

فى الخريف إتخذ الرفاق مقرا لقيادتهم فى «غابة الثعلب» وهى تل يحيط به مجرى مائى سريع من أركانه الثلاثة.

كان الموقع للبيض لمدة عام، فلما غادروه بدون أن يردموا الخنادق التى حفروها به لم يجد الرفاق غضاضة فى احتلاله.

تقاسم يورى وليبريوس خندقا. أطار زعيم الرفاق النوم من عينيه بحديثه وثرثرته اللذين لا ينتهيان.

قال ليبريوس.

إنك تتجاهل محاضراتنا، فلم تحضر الليلة الماضية. أنت بلا حس بالمسئولية الاجتماعية، وتشبه زوجة الفلاح التى لا تستطيع القراءة، لكنك طبيب ومثقف وتجيد القراءة، ما تفسيرك للأمر؟

لا أدرى، لعله غبائى الذى بلا حدود. ألا تأسف لأجلى؟

لماذا تواضعك المزيف؟ لو تماديت فى احتقار وتجاهل المحاضرات وإقامة الصعاب فى وجهنا فإن معنى ذلك أنك تزدرى تعاليمنا وضد ثورتنا.!

يا إلهى، إننى لم أقصد أن أزدرى تعاليمكم، ولكم خالص تقديرى لجهدكم التعليمى. لقد اطلعت على مناقشاتكم وكلها

حقيقية: واجب الجندى نحو رفاقه، ونحو الضعفاء، والمساكين، والنساء، والشرف، والتواضع، وأنا أحفظها عن ظهر قلب.

كنت فى حداثتى مفعماً بالآمال نحو حياة أفضل، فكيف أسخر منكم ومن تعاليمكم؟

لكننى، أولاً: لست متحمساً لفكرة التفوق الطبقى، وذلك مفهوم منذ قيام ثورة أكتوبر..

وثانياً: لأنه بعيد عن التطبيق.

حتى الحديث عنه قد كلفنا بحراً من الدماء، ولست متأكدا تماماً أن الغاية تبرر الوسيلة!

وأخيراً، فإننى حين اسمع الناس يتحدثون عن إعادة تشكيل الحياة، فإن هذا يجعلنى أفقد أعصابى وأسقط فى هوة اليأس. إعادة تشكيل الحياة! إن الذين يقولون هذا ليست عندهم فكرة ولا يفهمون شيئا عن الحياة، ولم يشعروا بروحها أو قلبها.

إن الحياة ليست مادة، ليست شيئا مادياً يمكن أن نشكله.

إن الحياة تتجدد باستمرار وتعيد بناء وتشكيل نفسها بنفسها، وهى ليست فى حاجة إلى نظرياتنا ليعاد تشكيلها.

ـ لا لو أنك، كما تعرف، حضرت اجتماعاتنا، ولو تسنى لك أن تطلع على الرفاق الرائعين، فلن يصيبك ذلك النوع من اليأس.

إنك لا ترى سوى القتال والدمار، ولا تقدر أن تلمح شعاعاً من الأمل.

لكن هزائمنا وقتية وعارضة تماما. ونحن واثقون من النصر فى النهاية، وما عليك إلا أن تنتظر وترى.

لذلك فتشجع!

فكر يورى:

هذا شئ غير قابل للنقاش. كيف يمكن أن يكون أى إنسان بهذه السذاجة كلها وغاية البلاهة؟!

لقد ظللت أسوق له الحقيقة التى تؤكد أن أفكارنا مختلفة تماما. إنه يحتجزنى بالقوة ورغم إرادتى..

ويتخيل أن هزائمه تملؤنى يأسا، وأن آماله يمكن أن ترفع معنوياتى..!

كيف يكون هناك شخص بهذا العمى؟ بالنسبة له، مصير العالم مرهون بانتصار ثورة أكتوبر!

لم يعقب يورى، لكن كان من الواضح أن زمامه قد أفلت..

قال ليبريوس:

ـ أنت غاضب، ومعنى هذا أنك جانبت الصواب.

ـ بحق الرب إفهم ولو لمرة واحدة فقط، أن لا شيئ مما قلته يعنينى فى قليل أو كثير. سأسلم بأنكم أحرار ثوريون، وأنكم وهج الثورة ومشاعلها، وأنها لولاكم لانتهت، ولتبددت ولغاصت فى البؤس والجهل.

ـ لكننى لم ألعن أحد منك. إننى أكرهكم جميعا فلتذهبوا جميعا إلى الشيطان.

إن الذين يمدونك بالأفكار يتحدثون دائما بلغة هؤلاء الذين انقضى زمانهم وبليت أفكارهم. لكنهم نسوا شيئا واحداً:

إنك تستطيع أن تصحب جوادا إلى الماء، لكنك لا تستطيع إجباره على أن يشرب.

ثم إنهم قد تبنوا عادة تحرير الناس الذين لم يطلبوا الحرية. وأريد أن أشكركم لحفظى سجينا، ولأنكم حررتمونى من زوجتى، ومن ولدى، ومن بيتى وعملى ومن كل شيء يجعل الحياة جديرة بأن تعاش!

ثم إن هناك قصة تنتشر بأن بعض المجهولين قد هاجموا فاركينو، وأنهم محاربون ضيقوا العيون يرتدون المعاطف السميكة، والقبعات الفراء، وقد عبروا النهر فى هذا الصقيع المخيف وأطلقوا النار فى هدوء تام وقتلوا كل من كان هناك،

واختفوا فى غموض كما جاءوا. هل لديك معلومات عن هذا؟ وهل هو حقيقى؟

ـ هراء. كل هذه أكاذيب. تقارير كاذبة..

ـ إن كنت طيبا وكريما كما تدعى دعنى أذهب. فأذهب لأبحث عن أسرتى. لا أدرى أين هم، ولا أدرى حتى إن كانوا على قيد الحياة أم موتى.

فإن رفضت فعليك أن تطبق فمك وأن تدعنى وحيدا، فإننى لا أهتم بشئ آخر. على أية حال، أى جحيم هذا، أليس لى الحق أن أذهب وأنام؟

رقد يورى على فراشه، دافنا وجهه فى الوسادة، جاهداً ألا ينصت إلى ليبريوس الذى يحاول إراحته بالوعود بالنصر النهائى على البيض قبل حلول الربيع.

سوف تنتهى الحرب، ويسود السلام والحرية. وإلى أن يتحقق ذلك على يورى أن يصبر، وليس كثيراً أن نصبر بضعة شهور.

فكر يورى فى غضب صامت:

ـ يا له من اسطوانة مسجلة، اللعنة عليه! لن يكف.

لماذا لا يخجل من تكرار هذا الهراء طوال تلك السنين؟

تونيا يا حبيبتى، ويا طفلى المسكين! أين أنتما؟

هل أنتما على قيد الحياة؟

إن تونيا، يا إلهى، على وشك أن تضع مولودا.

فـهل يكون ذكـرا أم أنـثى.؟ يا أعـزائى، مـا الذى يحـدث لكم جميعاً..؟

لارا، لا أستطيع ولا أجرؤ على ذكر إسمك وإلا سحقونى.

آه يا إلهى.! آه يا إلهى.. وهذا البهيمة لا يزال يردد سخافاته!

ذات يوم سوف يذهب بعيدا، وسأقتله، أقتله..

* * *

الفصل الثانى عشر

شجرة الدردار المتجمدة

- ١ -

انتقل الرفاق من غابة الثعلب إلى معسكر جديد مؤقت، لكنهم اضطروا لقضاء الشتاء هناك.

كانت الغابة كثيفة، وممتدة إلى ما لا نهاية. وفى الأيام الأولى، أمضى يورى وقته فى اكتشاف مجاهلها، ولم يزل يتذكر مكانين كان أولهما فى طرف الغابة، خارج المعسكر. الغابة كلها جرداء عدا شجرة دردار وحيدة مورقة، تطاول السماء، وهى تنوء بحملها من التوت الأحمر تتحدى به غطرسة الشتاء.

وفوق الأغصان طيور صغيرة بريش يلمع كانبثاق الفجر فى قوة وجمال، تلتقط التوت،وتمط أعناقها ثم تلقى رؤوسها للخلف لتبتلع التوت.

أما ثانى المكانين فكان أكثر غرابة. كان مرتفعا ينحدر إنحداراً شديداً من أحد جوانبه، كما لو أن انهياراً حدث فيه فى زمن ما.. وعلى امتداد حافته صخور تسده حتى نهايته.

ذات يوم تكاثفت سحبه، فى الصباح برزت كلمة الموت من أفواه دستة من الرجال الذين تآمروا على اغتيال ليبريوس، ولقد ساقهم عشرون من الرفاق إلى المكان الثانى، وأحكموا حصارهم فى شكل نصف دائرة، وهم يحملون البنادق، وتعمدوا أن يضعوهم فى صف واحد وخلفهم الحافة المميتة.

أزال الاستجواب والمعاناة حب الإنسانية من وجوه السجناء، فإذا بهم يبثون الفزع كالأشباح. بينهم صبى لا يزال يرتدى الكاب المدرسى. أزاح الصبى الكاب وسقط على ركبتيه ينتحب وقلبه ينفطر حزناً، قال:

ـ سامحونى، أيها الرفاق، أنا آسف، لن أعاود ما فعلت. دعونى أذهب من فضلكم، لا تقتلونى، فلم أعش بعد. سأفعل لأجلكم أى شئ. أوه، العون، العون، يا أمى. لقد انتهيت!



صاح آخر مختبئ فى الزحام فى صوت منغم:

ـ أيها الرفاق الطيبون، أيها الرحماء.. كيف يمكنكم هذا؟

لقد حاربنا معا فى حربين! حاربنا من أجل نفس المبادئ!

أطلقوا سراحنا. سنكون لكم من الشاكرين أن حفظتم لنا حياتنا. آأنتم صم أم ماذا؟ لماذا لاتجيبون؟

صاح آخرون:

ـ قتلة.! لوكنا خونة، فإنكم خونة ثلاثة أضعاف، يا كلاب. لقد قتلتم حاكمكم الشرعى، لا تنسوا. وسوف تنقلبون على زعيم الإخوة كذلك!

لكن واحدا فقط، بقى برأسه مرفوعاً، وشعره الأشيب يتماوج فى الريح. صاح فيمن حوله:

ـ لا تذلوا أنفسكم! إن اعتراضكم سيذهب أدراج الرياح. هؤلاء السفاكون الجدد لن يفهموكم فلا تجبنوا. التاريخ سيقول الحقيقة وإننا ضحينا بأرواحنا من أجل الثورة. نحن نحيك، يا ثورة الروح!

انفجرت عشرون طلقة لتردى نصف المتمردين، ثم انطلقت الدفعة الثانية من الطلقات لتردى الباقين.

وكان الصبى آخر من لفظ الروح!

- ٢ -

كان ذلك أصعب أوقاتهم، فقد أحاط بهم البيض وضغطوا عليهم من كل الجوانب، ولم يكن للحمر وقاء سوى الغابة على سعتها وكثافتها، لكن لم يستطيعوا فكاكاً ولا حراكاً..

وابتلى الحمر بنقص حاد فى الدقيق والبطاطس والكساء، فقرروا قتل كلاب المعسكر واتخاذ سترات من جلودها لتدفئهم، وكان من العسير أن يصل إلى أسماعهم ضجيج المعارك التى تدور رحاها عن بعد.

لكن ذات يوم اندفعت طلقات عديدة مفاجئةفى الغابة، وانطلق جمهور كثيف من الإخوة نحو المكان. تجمعوا حول بقايا رجل ينزف. لقد انخلعت ذراعه اليمنى وساقه، فراح يزحف فى الغابة باتجاه المعسكر.

كانت ذراعه المبتورة وساقه. المخلوعة مربوطتين على ظهره. بلوح خشبى مكتوب فوقه كلمات مهينة، وأن هذا انتقام نفذه البيض رداً على فعل مماثلٍ للحمر.

كان من العسير على الرجل أن ينطق، بيد أنه تحامل على نفسه ليقول:

ـ إسمحوا لى بأن ألتقط أنفاسى. إنكم لا تعلمون مايجرى هناك. إن المدينة كلها تتألم. إنهم يسلقون الناس أحياء، ويفصلون

أعضاءهم، ويسلخونهم سلخ الشاه، ويشنقون البعض، ويضربون البعض الآخر بقضبان الحديد و..

ثم شهق الرجل ومات دون أن يتم حكايته.

- ٣ -

أقبل الشتاء بصقيعه يكتسح كل شيئ. لم يبق وسط الصقيع المهلك سوى أشكال مقطوعة الأوصال.. تتحرك ثم تختفى..

وها هى كرة انشمس الحمراء معلقة فى الغابة، وينبعث منها فى بطء وعلى مهل ـ كما هو الشأن فى الحلم والحكاية الخيالية ـ أشعة صفراء من الضوء وتنتشر فى كثافة العسل، وتطوق الأشجار، وتنفذ إلى الجليد..

مست أقدام خفية ترتدى أحذية من الفراء الأرض فى رقة، على حين ارتفعت سترات الفراء فوقها فى الفضاء العالى كأنها أجسام سماوية. توقف الأصدقاء وتحدثوا، ووجوههم متقاربة، بلحى تشبه العجين المثلج. ومن أفواههم اندفعت سحابات من البخار الكثيف، سريعة، كبيرة، تقطع الكلمات التى صحبتها.

لقى يورى، وهو يتمشى عبر الممر، ليبريوس الذى استوقفه:

ـ مرحى أيها الغريب..! هلم إلى خندقى هذا المساء، لتقضى الليل، فلنا حديث طيب. هناك بعض الأخبار.

وفى الخندق، ذلك المساء، ردد يورى سؤاله:

ـ ماذا سمعت عن أسرنا.؟ أخبرني وحسب.

ـ إنك لا تريد أن ترى لأبعد من أنفك مطلقا. وبقدر علمى، فهم فى أمان. لكن المهم الأنباء فى المحل الأول. لقد زالت الغمة. العدو يتراجع منسحب على طول الجبهة. إنهم ينكسرون.

إن الجزء الرئيسى من الجيش الأحمر يطارد فلولهم باتجاه الشرق وإلى البحر. إن روسيا كلها فى الجنوب قد تم تطهيرها من العدو. حسن، ألست سعيداً.؟ ألا يكفيك هذا؟

ـ إننى سعيد.. لكن أين أسرنا..؟

ـ ليسوا فى فاركينو، وهذا من الحظ السعيد. لعلك تتذكر تلك القصة الصيف الماضى، عن الغرباء المجهولين الذين هاجموا فاركينو؟ لقد ظننت الأمر لغوا فى ذلك الحين. الكل على نفس المنوال، فالقرية مهجورة. كما لو أن شيئا قد حدث، وحسناً قد فعلوا حين أفلتوا فى الوقت المناسب.

ـ وماذا عن يورياتين؟ ماذا حدث هناك؟

ـ يقولون إن البيض لا يزالون هناك، لكن هذه استحالة، فلو كانوا هناك فإن اتصالاتهم مقطوعة ولا يلبثوا أن يقعوا فى قبضتنا. لماذا ترتدى معطفك.؟ إلى أين أنت ذاهب.؟

ـ سأعود فى غضون دقيقة. ثمة دخان كثيف هنا وأعانى من صداع رهيب، وخرجت إلتماسا لنسمة هواء.

بالخارج، نسى يورى كل شىء عن الغابة، والمعسكر، وعن الثمانية عشر شهرا بين الإخوة.

لقد شحن عقله بذكريات الأحباب، التى زاحمت كل شىء سواها. حاول أن يتخيل مصيرهم.

نهضت أمامه صور، كلها مخيفة.. تونيا تسير فى خضم عاصفة جليدية مع الصغير ساشا فى أحضانها. والأب يغوص فى الجليد. أوه، لكنه كاد ينسى، هناك الوليد كذلك، وأين والد تونيا..؟ ونيوشا؟ والآخرون؟

فجأة، إتخذت أفكاره إتجاها آخر، وغير رأيه:

لن يعود إلى ليبريوس. لقد أخفى منذ زمن عصوين للانزلاق على الجليد، وحقيبة مملوءة بالطعام وأشياء أخرى. دفنها فى الجليد خارج المعسكر، قرب شجرة تنوب عالية، ووضع علامة على الشجرة بسكين.

الآن، استدار وسار باتجاه كنزه الدفين. كانت الليلة صافية والقمر بدرا. حين وصل إلى قرب المكان ناداه حارس على بعد، وانطلق باتجاهه كالسهم مستخدما عصوا الانزلاق..

ـ قف وإلا أرديتك. من أنت؟ ما هى كلمة السر.؟

ـ ماالخبر يارجل..؟ ألا تعرفنى..؟ إننى طبيب المعسكر، زيفاجو..!

ـ عفوا، يارفيق. لم أعرفك. الكل سواء، طبيب أم سواه فلن أسمح لك بالمرور. الأوامر هى الأوامر..

ـ على رسلك. كلمة السر هى (سيبريا حمراء).

والإجابة هى (سحقاً لأعداء الثورة!)

ـ رائع، استمر. من تطارد فى هذا الوقت من الليل؟

ـ إننى ظمآن، فقلت فى نفسى لابأس من أن أمضغ بعض الجليد. ثم لمحت تلك الشجرة، شجرة الدرداء منوعة بالتوت المثلّج، وأريد الذهاب لاقطف بعضه..

ـ من يتخيل شخصاً يقطف التوت فى الشتاء؟

حسنا، إذهب واقطف التوت أيها المجنون.. ماشأنى أنا؟.

وراح يجرى، مستخدما العصوين الطويلتين، وهو يصغى مبتعدا..

انتهى الممر بيورى إلى أسفل شجرة الدردار، وقد غاصت إلى المنتصف فى الجليد، وانكست الأوراق والتوت بالجليد، بينما

ارتفع منها غصنان أبيضان فى هيئة ترحيب.

تذكر يورى ذراع لارا القوى الأبيض، فجذب الغصنين وهو يقول:

- سوف أعثر بكم ياأحلى ما فى حياتى، ياحبى، ياشجرة درداري، يالحمى ودمى.

وشق طريقة موغلا فى الغابة، إلى الشجرة الكنز، واستخرج أشياءه، وغادر المعسكر.

* * *

الفصل الثالث عشر

أمام المنزل ذى الأعمدة الحجرية

- ١ -

الطريق إلى الشارع يلتف ويتعرج أسفل التل. يمكنك معرفة الشارع بمنازله الشاهقة وكنائسه التى تعد أعلى أجزاء يورياتين.

وإلى الركن بناء رمادى داكن ذو أعمدة حجرية. الحجارة الضخمة المربعة الشكل فى الجزء السفلى من البناء سوداء وملصق عليها صفحات جرائد ونشرات ثورية حديثة، تجمع الناس أمامها فى مجموعات صغيرة يقرأون فى صمت.

لقد رحل البيض عن المدينة، واحتلها الحمر. يمكن مطالعة القليل من النشرات فى الضوء المتبقى من النهار الطويل.

(يعد مخالفا للقانون...)

(وجو شخص بدون تصريح عمل...)

(وحمل أشخاص أسلحة بدون ترخيص..)

(وتخزين البضائع الزائدة عن استهلاك الفرد)

(ومن ضبط متلبساً يتم إعدامه على الملأ).

- ٢ -

إنضم إلى الحشد رجل نحيل مخيف المنظر، أسود تغمره الأقزار، يحمل على كتفه حقيبة فوق عصا. من جذع شجرة. إنه الدكتور يورى زيفاجو.

بلا ريب انتزعوا معطفه الفراء فى الطريق، أو ربما بادله بطعام، وما السترة التى يرتديها ممزقة، ضيقة، قصيرة الأكمام سوى مقابل المبادلة..

كل ما بقى فى حقيبته كبيرة قطعة خبز تصدق بها عليه رجل فى القرية قرب المدينة، وقطعة من الدهن.

لقد وصل يورياتين فى وقت مبكر، لكنه كان من الضعف والإعياء إلى الحد أن يستغرق وصوله إلى هنا أكثر من ساعة.

لقد ملأه مرأى الشارع بالسعادة كمرأى صديق عزيز... كانت معظم رحلته سيراً على قدميه متتبعا الخط الحديدى وقد انخلعت معظم قضبانه، وتعطلت القطارات وهجرها البيض حين أوقفها الجليد ونقص الوقود.

دفنت القطارات فى الجليد، فاتخذتها جماعات اللصوص المسلحين أوكارا وحصونا، أو مخابئ تخفى المجرمين والفارين من بطش السياسيين.

لكن تلك الحصون كانت كذلك قبوراً لضحايا البرد والتيفوس.

كان المسافر يفر من الطريق لمرأى مسافر آخر، فإن لقى غريب غريباً عاجله بالقتل خشية أن يهاجمه فى مقتل. شاهد يورى كثيرين كالأشباح يهرولون باتجاهه. تحاشاهم بمهارة قدر الإمكان.

حاول يورى أن يطالع النشرات، بيد أن عينيه كانت تنظران إلى نوافذ الطابق الثالث للمنزل عبر الشارع.

ـ هل رحلت لارا؟

ـ هل سكن آخرون الشقق؟

ـ هل تغير كل شيئ تماما؟

إن الشك لا يمكن احتماله!

عبر يورى الطريق، مواصلاً، وتسلق السلالم العزيزة إلى نفسه. لكم حاول فى المعسكر أن يتخيل كل درجة فيها!

كان على وشك أن يطرق الباب حين لاحظ القفل على الباب.

أيقن يورى أنه لا لارا ولا كاتيا هناك، حتى لو بقيتا على قيد الحياة.. فقرر البحث عن المفتاح فى الفجوة بين الطوب، رغم انحسار أمله فى أن يجد أى شيء.!

يا للمعجزة..! المفتاح موجود ومعه مذكرة مكتوبة، والأكثر من معجزة أن المذكرة موجهة إليه هو.

سارع بقراءة المذكرة.

أى سعادة.! يقولون إنك حى، وأنك عدت. شخص لمحك قرب المدينة واندفع ليخبرنى. خمنت أنك ستتجه إلى فاركينو، لذلك ذهبت إلى هناك مع كاتيا. إنتظرنى، لا تذهب. إن الشقة شبه خاوية، ولقد اضطررت لبيع جزء من الأثاث. تركت بعض الطعام، أعلبه من البطاطس المسلوق. سأجن من الفرح!

لكن يورى لم ينتبه إلى الكلمات المكتوبة على ظهر الورقة. ثنى الوقة ووضعها فى جيبه مع المفتاح.

لارا ذهبت إلى فاركينو، معنى ذلك أن أسرته ليست هناك. لماذا لم تشر إليهم بكلمة واحدة؟ لكن الظلام اوشيك، وعليه أن

يقرأ النشرات فوق جدار المنزل ذى الأعمدة الحجرية. ليس ظريفا أن يتجاهل التعليمات، فالجهل بها يمكن أن يكلفه حياته..

استدار وعاد يعبر الطريق من جديد..

- ٣ -

مواد صحفية، وتقارير عن الندوات والاجتماعات، وتعليمات.

أدار تكرارها وغثاثتها رأس يورى. هل قدر عليه ألا يسمع، عاما بعد عام، وطوال حياته شيئا غير تلك المطالب الصارخة، والثابتة والمجنونة التى إن هى إلا نزهات بلا معنى وبلا حياة؟

عبر الطريق من جديد، وفتح الباب، باب منزل لارا. أصدر المفتاح صريراً مزعجا. حيته الشقة الخاوية بصليل من الأوانى تقع على الأرض. اندفعت الجرذان من الأرفف، قفزت على الأرضية وتفرقت فى كل صوب. لا ريب أنها تكاثرت فأصبحت بالآلاف.

شعر يورى بالغثيان.

استدار إلى اليسار، عابراً ممرا حالكا، إلى غرفة لارا. فى مواجهة النافذة يطل المنزل ذو الأعمدة الحجرية، ولا يزال جمهور كبير يطالع النشرات..

كان الضوء فى الغرفة جديدا، ضوءا صافياً لأمسية ربيعية مبكرة. يبدو جالباً الأمل الوشيك من بعيد. الكل سوف يكون على ما يرام.

شمل يورى إحساس طاغ بالإثارة، إنه فى حال لا توصف من الإعياء، ولا يستطيع الانتظار. مرة أخرى شعر بحاجته إلى الخروج. يريد أن يقص شعره ويحلق لحيته. لقد بحث عن حلاق، لكن حوانيت الحلاقة كانت مغلقة.

تذكر الآن أن ثمة ورشة ترزى فى شارع سباسكى: لربما استطاع أن يستعير مقصا.!

– ٤ –

هنا الورشة. استدار إلى الباب الخلفى وطرقه. فتحته إمرأة مسنة، شرسة السمات، فى ثوب أسود.

شرح لها يورى الأمر، فقالت:

ـ بالطبع، الحلاقون مغلقون، فاليوم هو السابع عشر من الشهر. يوم أجازة.

رفضت أن تقرضه المقص، وقالت:

ـ أدخل، وسأقص أنا شعرك. لقد مارست فى حياتى الكثير من الأعمال، ولقد تعلمت الحلاقة أثناء عملى كممرضة فى الحرب الأخرى.

جلبت بعض الماء الساخن، وبدأت تحلق لحيته.

قالت:

ـ الأمر هنا مفزع، لكنه سيتغير تدريجيا. إن الحكومة الجديدة فى جانب العامة من الناس. إن إبن أخى على رأس قوات الإخوة هنا. إنه معتدل للغاية.

فكر يورى:

ـ إذن فإنها هى، عمة ليبريوس..

ـ لقد نشأ ابن أخى بين عمال المصنع. لربما سمعت عن مصانع فاركينو؟

سألها يورى:

ـ فاركينو، إنها فى مكان يبعد بضعة كيلومترات فى ا لريف، أليس كذلك،؟ لابد أنها فى أمان تام.

ـ لقد خربوها ولقد توغلت فيها بعض العصابات المسلحة، واقتحمتها بيتا بيتا، واغتالت من وجدته من أهلها. والجثث هناك ملقاة فى الجليد..

كف عن الحركة، لقد أوشكت على الانتهاء..

ـ هل قتلوا كل من هناك.؟ كلهم؟

ـ لا، فالله رحيم، كان هناك بعض الغرباء، ناس من موسكو. كان هناك رجلان أصغرهما طبيب، وهو مفقود. بالطبع مات. ظلوا يبحثون عنه، لكنه لم يعد. ثم تم استدعاء الأكبر إلى موسكو.

لقد ذهبوا قبل عودة البيض. كف عن الحركة والقفز! ستجبرني على أن أقطع عنقك برغمي، ياعزيزى.

إذن فقد رحلوا إلى موسكو!

* * *

الفصل الرابع عشر

قوى الظلام

- ١ -

ـ فى موسكو.. فى موسكو..!

للكلمات صدى فى قلبه وهو يصعد درج السلم الحديدى..

استقبلته الشقة الخاوية بضجيج كالجحيم من تسابق الجرذان وفرارها. دخل غرفة النوم. كان من الواضح، رغم إعيائه الشديد، أنه لن ينام مطلقا إن لم ينحى حماقته جانبا. استغرق نحو الساعة ليسد الثقوب والشقوق التى صنعتها الجرذان بالزجاج المكسور.

ثم وضع بعض الحطب فوق الموقد وأشعل النار. استخرج رسالة لارا من جيبه ليقرأها من جديد، وهنا لاحظ الكتابة الخلفية.

(أنت تعلم أن أهلك فى موسكو، ولقد رزقت تونيا بمولودة) .

بكى، ونام على ضوء ودفء اللهب المتراقص. حين صحا، فكر:

ـ إننى مريض. لابد أنه التيفوس.

حاول أن ينهض نفسه على ذراع واحد، لكنه كان عاجزاً عن الحركة. كانت الجرذان فى ضجيج متزايد فى المطبخ، تخربش، وتصعد الجدران وتهبط، فأصابه الإغماء ونام.

حين عاود الصحو، خيل إليه أنه سمع بعض الأصوات وأصابه الرعب. لقد امتلأت النوافذ الثلجية بضوء الفجر أو تخللها وغمرها ضوء الشمس، بلون براق أحمر كالنبيذ فى الكأس..

فجأة أدرك أنه لم يكن حلما، فها هو يرقد ـ وقد اغتسل ـ فى فراش نظيف، فى قميص ناصع، وثمة شخص يبكى منحنيا فوقه، وقد اختلط شعراهما، ودموعها تهطل وتمتزج بدموعه.

إنها لارا.

ـ ٢ ـ

سرعان ما أبل من مرضه. أطعمته، ورعته، ومرضته، وأحاطته بالعناية..

قالت:

ـ بالطبع عليك أن ترجع إلى أسرتك، ولا أريد أن احتجزك يوما بلا مبرر. لكن كيف لك بالرحيل وأنت على هذا الضعف؟ إنك جلد على عظم!

لن تتمكن من الذهاب إلى هناك. حين تتقوى سيختلف الحال، ولو سمعت نصيحتى فعليك أن تجد وظيفة، فأعمل فى حرفتك، وسأعود أنا إلى التدريس.

ـ وما هى أخبار سترلنكوف؟

ـ له أعداء كثيرون. الان الجيش الأحمر منتصر، وباشا فى خطر عظيم. سمعت أنه قد فر بعيدا، ومختبئ..

ـ حدثينى عن تونيا. بماذا سموا الوليدة؟

ـ ماشا، إحياء لذكرى والدتك..

ـ وفاركينو، ما أخبارها؟

ـ إنها قذرة، غير مرتبة. أعدنا تنظيفها وساعدنا سامديفياتوف على الاستقرار فيها، وأمطرنا بالحنان وغمرنا بالعطف.

ـ وأظنه على الرحب والسعة حين يحضر إلى هنا وأنت معجبة به؟ آسف لا ينبغى أن أسألك عن ذلك.

ـ أوه، كل هذا صحيح! لقد فعل لأجلى الكثير.

لكننى لم أعطه شيئا فى المقابل. أولئك الرجال العمليون، الواثقون بأنفسهم.. لم تكشف لهم الحياة عن وجهها الجميل.

ولكى ترى الوجه الجميل للحياة لابد أن تنظر إليها بنظرة طفل. لقد سرق منى الوجه الجميل منذ سنوات، سرقة شخص ما، وحطمنى.!

ـ من ذلك الكريه الذى أفسد حياتك؟

ـ إنه محام معروف من موسكو.. وصديق لأبى، أعزب، وغنى.

ـ أعرفه. لقد رأتيه مرتين.

ـ حقيقى؟

ـ كوماروفيسكى. لقد تعرف عليه زميل دراسة لى. فى خلال رحلة رأى زميلى ميشاجوردون أبى ينتحر.

لقد ألقى بنفسه من القطار السريع. كان يصحبه فى السفر محاميه. كوماروفسكى. لقد شجع أبى على الشرب حتى أدمن، ثم أشاع الفوضى فى عمله حتى استولى على ثروته، وبعدها انتحر أبى مفلسا، وكانت تلك غلطة كوماروفسكى.

ـ أيمكن أن يكون هذا حقيقيا؟ إذن فقد أثر فى حياتك تأثيرا مأساويا كذلك.! وهذا يزيد من تقاربنا عن ذى قبل، أليس كذلك؟

ـ ٣ ـ

أقبل الصيف وكما جاء ذهب بلا أثر. استرد يورى عافيته وبدأ العمل بالمستشفى، فى فترة عمله حضر اجتماعات الخدمة الصحية ليورياتين فى شارع سباسكى.

وحين يعود فى الليل، منهكا وجوعانا، تكون لارا مشغولة بأعمال البيت من طهى وغسيل وترتيب، أو بالقراءة أو بتثقيف نفسها، لتساير عملها فى المدرسة الجديدة.

وبعد أن انقضى شهران أو ثلاثة على تلك الوتيرة، قال يورى للارا ذات يوم من أكتوبر:

يبدو أننى على وشك الاستقالة من عملى. إنه لا يتقدم، ففى البداية كل شىء رائع.. وشعارات:

(نرحب بالأفكار، وبخاصة الأفكار الجديدة..).

(ما الذى يرضينا أكثر..؟ أن تؤدى عملك، وأبحاثك، حارب).

ثم نكتشف أنهم لا يقصدون بالأفكار سوى الكلمات الجوفاء!

مدح الثورة والحكومة الجديدة.. كلمات مستهلكة تسقمنى وتثير غثيانى، لم أتقبل زعمهم بأنهم محبوبون وأبطال، وأنا نفسى لا أحب الطغاة.

أحياناً، فى محاضراتى يقاطعوننى صائحين: المثالية.. التصوف! الفلسفة..!

لدى إحساس أنهم سيعتقلوننى ذات يوم، وما من ضرر أن أكون على حذر. لاحظت أنه كلما جاءت حكومة جديدة إلى السلطة، فإنها تبادر إلى السير فى مراحل تنظيم معينة، فى المرحلة الأولى تكون الغلبة للعقل، لروح النقد وما يشبه ذلك.

ثم تأتى المرحلة الثانية، وينصب الحديث كله على قوى الظلام والمنافقين والأعداء الذين يعيشون بيننا، والمخبرين، والخطط، والكره..

إننا داخلون إلى المرحلة الثانية، فالسماء ملبدة بالغيوم، ووقت العيش فى أمان انتهى. إنهم بلا ريب سوف يعتقلوننا، أنت وأنا ثم ماذا سيكون مصير كاتيا؟

— ٤ —

كان اليوم يوم الراحة ليورى، وها هو فى استرخاء فى مقعد مريح. الظلام وشيك، ويشبه الجليد. جذب أحدهم مقبض الباب

الخارجى، وفتحت لارا. سمع يورى صوت إمرأة.. صوت امرأة يعرفها.. كانت تقول:

بحوزتى رسالة لصديقك. إنه لمحظوظ لأننى كنت أعمل بالبريد. الرسالة من موسكو ولقد ظلت فى طريقها منذ خمسة أشهر، ولا أحد يعرف الاسم فوق المظروف، وفى النهاية سألونى، وعرفت على الفور.. فقد جاءنى ذات مرة ليحلق.

كانت الرسالة من تونيا – كتبت تقول:

(يورا، لقد نفوا كثيرين من روسيا، من بينهم خالك كوليا، وأبى، وبقيتنا. هنا بؤسى وشقائى، لكن فى مثل هذه الظروف يمكن أن تصل الأمور إلى الأسوأ. أين أنت..؟ إننى أبعث إليك هذه الرسالة على عنوان آنتيبوقا: وسوف تسلّمها لك حين تعثر بك..

إن قلبى ينبئنى بأنك مازلت حيا. إن كل المشكلة أننى أحبك وأنت لا تحبنى. آه لو تعلم كم أحبك.! ربما نذهب إلى باريس. هل بلغك أننا رزقنا بالبنت.. ماشا.؟. أما ساشا فقد كبر وحين نتحدث عنك لا يكف عن الصراخ والعويل ولا نستطيع تهدئته إلا بعد لأى وجهد كبيرين. لا أستطيع الاستمرار، فأنا لا أكف عن البكاء..!

يورا، يا حبيبى، يا عزيزى، يا زوجى، يا أبا طفلىّ. ما الذى يحدث لنا..؟ هل تدرك حقا أننا لن نرى بعضنا البعض مطلقا؟).

أنهى يورى القراءة ورفع رأسه بعينين زائغتين، بلا دموع، جفتا من الأسى، فارغتين من فرط المعاناة، وفى الخارج، كانت الثلوج تتساقط بغزارة.!

* * *

الفصل الخامس عشر

ذئاب

- ١ -

ها هو الشتاء قد دخل فى ذروته، ويورى يمشى عائداً من المستشفى لقيته لارا عند الباب، وقالت فى صوت مرتعش النبرات:

كوماروفسكى هنا.

أين؟. فى الشقة؟.

كلا بالطبع. لقد أتى فى الصباح وأخبرنى بأنه سيعود فى المساء، وسرعان ما يجىء...

لماذا أتى؟

قال إننا فى خطر كبير، نحن الثلاثة.

إننى ذاهب، فلا أريد أن ألقاه.

انفجرت لارا تبكي، وحاولت أن ترتمى تحت قدميه.

قالت فى ضراعة وتوسل:

أرجوك أن تبقى لأجل خاطرى، أنقذنى من رؤيته لوحدى، وسوف يساعدنا بالتأكيد.

سوف أبقى بالطبع، وسأقتله إن أردت منى ذلك...

قطعت لارا بعض الخبز الأسمر، ووضعته مع طبق به قليل من البطاطس المسلوق على الطاولة. فى وسط الطاولة زجاجة بترول يستعملونها للإنارة.

خرج كوماروفسكى فى ليلة مظلمة من ديسمبر يغطيه الجليد، تتساقط قطع الجليد من قبعته، ومعطفه، وحذاءيه، وتذوب مكونة خيوطا من الماء فى الأرض. ارتدى بدلة قديمة لكن جذابة.

قبل أن يلقى التحية، أمضى وقتاً طويلاً فى تمشيط شعره المبلول بمشط استخرجه من جيبه، ومجففا شاربه وحاجبيه بمنديل، ثم مد كلتا يديه، اليسرى للارا واليمنى ليورى.. قائلاً:

إننى فى غاية السعادة لرؤيتكما معا، يا عزيزىّ. إنكما تليقان ببعضكما على نحو مدهش.

قال يورى:

توقف من فضلك، و أكون لك شاكراً لو اقتصرت على ما يعنيك. إننا لم نطلب منك عطفاً.

حسن يا طفلىّ، إننى أعرض عليكما خدماتى ورغباتى، وبدون معرفة الرغبات، ستسقطان إلى هاوية سحيقة. إن لم تبادرا بالتنفيذ لما أطلب، فإن حريتكما بل وربما حياتكما لن تطول لعدة أيام..

يوجد نظام شيوعى معين، يا يورى آندريڤتش، و أنت تهينه وتشوهه. كلاكما مكروه من المسئولين هنا. إنك رجل يا يورى آندريڤتش، ولك الحق فى أن تأتى الحماقات وأن تخاطر بحياتك كما تشاء، لكن لاريسا فيودوروڤنا أم، ولها حياة طفلة تسهر عليها دعونى أشرح الأمر. لقد قرروا إجراء تغييرات واسعة فى المسئولين لإرساء المزيد من الديمقراطية، ومن ثم فإن أعضاء عديدين من قسم العقوبات سيفقدون وظائفهم، وهم يسارعون فى سداد الديون القديمة، وقبل النهاية فإن عهدا من البطش والوحشية قد بدأ، كما ترون.

لكن فلنصل إلى النقطة الجوهرية، إن هناك تجمّعا من مختلف الناس المهمين، والشخصيات العامة، ورجال العقوبات، ورجال الصناعة، وينوون إقامة جمهورية فى أقصى الشرق، ولقد عرضوا علىّ منصب وزير العدل فى الجمهورية الموعودة، وأنا فى طريقى إلى هناك الآن، وباستطاعتى أن أصحبكما معى..

قالت لارا ليورى:

أنت ترى يا عزيزى، أهمية كل ذلك لنا..

أنت سريعة التصديق يا عزيزتى، وڤيكتور أبوليتوڤتش بنى لنا قصورا فى الهواء... أتصدقينه.؟

كل ما يعنينا هو أنذهب معه أم لا... وأنت تعرف أننى لن أذهب بدونك..

جرع كوماروڤسكى بعض الكحول المخفف بالماء الذى جلبه يورى من المستشفى، وتناول بعض البطاطس المقلو، وإذا برأسه يدور بتأثير الشراب.

- ٢ -

كان الوقت قد تأخر، وقد أوى يورى ولارا إلى الفراش، لكن صوت كوماروڤسكى المزعج يطن:

لسيبريا أمكانيات هائلة. هناك إمكانيات كذلك فى المنطقة المحيطة بجمهوريتنا الموعودة، خارج منغوليا ذات مرة ستعبران حدود منغوليا، ويكون العالم تحت أقدامكما... أحرار كالهواء..

رفعت لارا يدها وقالت:

إنك تخيفنا.. والوقت قد تأخر، وعليك أن ترحل، إننى أغالب النعاس..!

أوه، إنك لا تنوين إلقائى فى الخارج فى هذا الوقت من الليل وأنا أجهل المدينة كما أن الظلام حالك..

كان عليك أن تحسب للأمر حسابه.

إنك لم تسأليني عن المكان الذى سأبيت فيه ليلتى..

ذلك لا يهمنى على الإطلاق. لن أتنازل لك بالطبع عن فراشى، فضلا عن أن بقية الغرف تغص بالجرذان.

لا يهمنى..

حسن، هذا شأنك وحدك!

- ٣ -

قال يورى:

- إنه على حق، وهذا محتمل الحدوث فى أى يوم، وقد آن الأوان لنختفى. أنصتى يا عزيزتى، لماذا لا نذهب إلى ڤاركينو ونبقى بعيداً عن الأنظار؟..

- بالطبع.! نذهب إلى العراء وسط الغابة، بدون طعام، بدون قوة أو أمل.. إن هذا جنون مطبق. لكن لم لا يا حبى.؟ فلنكن مجنونين إن لم يكن هناك ما يفعله سوى هذا..! إننا سنطلب من سامديڤيا توف ن يعيرنا جواداً، وأن يموّننا بالدقيق والبطاطس على الحساب.

رحلوا فى صباح يوم مطير. ناس كثيرون فى الشوارع، فى الطريق إلى أعمالهم. قاد يورى الطريق فى حذر شديد وهو يجر خلفه الجواد. حين غادروا المدينة، قاد يورى الجواد فانطلق يمرق كالسهم. قفزت الزحافة وانطلقت فوق الجليد كالسفينة فى العاصفة.

فى بعض الأحيان كان يورى يقود الجواد فى ضفتى النهر الجليديتين على سبيل الفكاهة، فتتعلق لارا وإبنتها بحافة الزحافة ضاحكتين تشكوان.

وصلوا إلى ڤاركينو فى الغسق، واتجهوا إلى مارين بمنزل زيڤاجو، إلى مقر مكيولتسين.

نزع زيڤاجو القفل من الباب، ثم اندفعوا إلى الغرف الأخرى على الفور.

راعهم ترتيب المنزل البديع، بوجه خاص مكتب مكيولتسين. بلا ريب ثمة أشخاص عاشوا هنا منذ فترة وجيزة، لكن من يكونون؟ وأين ذهبوا؟

لكنهم لم يزعجوا أنفسهم بخصوص المسألة وحل ألغازها.

وضع يورى الجواد فى الكوخ الخشبى فى المؤخرة، وجلب له الماء من البئر. ثم عاد إلى المنزل.

رقدوا جميعاً، مستخدمين معاطف الفراء كدثار، وسرعان ما استغرقوا فى نوم عميق، كالأطفال الذين ظلوا يلعبون طوال اليوم فى الهواء الطلق

- ٤ -

عندما استيقظوا، كان هناك عمل لينجزوه. أحضر يورى العشب للموقد، وغسلت لارا الملابس والأوانى ونظفت الأرض بالماء الساخن.

قال يورى:

- أسفر البحث عن أشياء أكثر: الصابون، والثقاب، والورق، وأقلام الرصاص، وأقلام الحبر، والحبر. كما أن المصباح فوق الطاولة ملىء إلى منتصفه بالزيت..

ـ يا له من حظ.! إنه الساكن المجهول.. اندفعوا من غرفة إلى أخرى؛ لم تتوقف أيديهما للحظة، لقد اندفعا وسقطا فوق كاتيا، التى كانت تحت أقدامهما..

فى نهاية اليوم قامت بإعطاء حمام لكاتيا، ثم اغتسلا بالماء الساخن. كانت الساعة قد بلغت الواحدة صباحاً حين ذهبت لارا إلى الفراش ونامت قريرة العين وإبنتها فى ملابس ناصعة ونظيفة..

كان السكون حول يورى يغمره بالسعادة، وضوء المصباح الأصفر ينساب على صفحات الورق ويلقى بأشعته الذهبية على ما سطره بالحبر..

كان قلب يورى فى سكينة. جلس يسجل بقلمه القصائد التى تدور فى عقله.

أخيراً، حين استقام له الوزن شرع يدون قصيدة جديدة..

بعد فترة ألقى على كتفيه المعطف، وخرج فى ضوء القمر كان الجليد كالشعلة البيضاء، ولم يقدر على رؤية شيء فى البداية.. ثم لاحظ ظلالاً طويلة على حافة الحقول التى كساها الجليد.

الذئاب وقفت صفاً، برؤوس مشرعة فى الفضاء وموجّهة إلى منزل، تعوى للقمر. ثم نكصت على أدبارها، وراحت تعدو ومبتعدة كالكلاب.

فكر يورى:

لابد أنها شمّت رائحة جواد سامديڤيا توف. عاد أدراجه وأغلق الأبواب جميعاً. استيقظت لارا... همست بصوت غلبه النعاس: أمازلت تعمل يا حبى..؟ فأطفأ المصباح..!

* * *

الفصل السادس عشر

الزائر

- ١ -

إنه اليوم الثالث عشر لهم فى ڤاركينو. لم يقدر يورى من الإنهاك الشديد أن ينهض من فراشه إلا بأن يتكئ على الجدران ليصل إلى بوابة المنزل ليحمّل الزحافة حطباً أقل من المعتاد. آلم الحطب المتجمد يدى يورى رغم وجود قفازيه. لوى الجواد رأسه باتجاه المنزل وصهل صهيلاً متصلاً وعالياً. قال يورى:

- لماذا الصهيل..؟ إهدأ لحظة، فسنرحل على الفور.

ربط الحطب، ثم استدار يسير إلى الجواد، فصهل مرة أخرى، وكان يرد على صهيل جواد آخر بعيد..



قبالة المنزل زحافة فسيحة يقودها جواد أسود، وأصوات تنبعث من المنزل، عرف يورى من بينها صوت كومارو ڤسكى.

دخل يورى. كانوا يرتدون ثياب الخروج تأهباً للرحيل إندفعت لارا إلى أحضان يورى:

- أنصت لما يقول، وقرر ما نفعل. لا وقت نضيّعه. قل له يا فيكتور أبولبتوڤيتش.

- لقد أنبأت لاريسا فيودوروڤنا تواً بما استجد من أخبار. قرب محطة سكة حديد يورياتين قطار خاص بالحكومة المرتقبة جاهز للسفر لقد وصلت من موسكو البارحة، وسيذهب فى الغد إلى الشرق ذلك القطار.. وعلىّ أن أذهب فيه.. توجد مقاعد مخصصة لمساعدىّ، ونستطيع أن نرحل فى غاية الراحة. لا توجد فرصة أخرى كهذه مرة أخرى، وعلينا أن نسرع. عليكم أن تحزموا الأشياء اللازمة للرحلة وحسب.

- إننى لا أفهمك يا فيكتور إيبوليتوڤيتش، إنك تتحدث كما لو أننى موافق على الرحيل. إذهب، وحظ سعيد، ولتذهب لارا معك إن شاءت.

- عمَ تتحدث يا يورا؟ أنت تعلم تماماً أننى لن أذهب دونك..

قال كومارو ڤسكى:

ـ فى تلك الحالة دعنى أحدثك يا يورى على انفراد..

بالتأكيد. نستطيع الحديث فى المطبخ..

– ٢ –

ـ لقد قبضوا على سترلنكوف،وتم إعدامه رمياً بالرصاص.

ـ هذا فظيع. لا تخبر لارا وإلا جُنّتْ .

ـ لن أفعل بالطبع. لكنها وكاتيا فى خطر داهم، أفأنت واثق تماماً بأنك لن تصاحبها.؟

ـ واثق تماماً.

ـ لكنها لن ترحل بدونك. تظاهر بأنك ستلحق بنا بعد أن تعد الزحافة، ومُرنا بأن نسرع فى التو بغير أن ننتظرك كيلا يضيع الوقت، وأنك ستلحق بنا حين تكون متأهباً..

أنت على حق. واحد منا أو الآخر سيتم القبض عليه، وسنرحل على أى حال. ولربما ذهبت فى النهاية أرجوك لأجل لارا، والحياة، والأمان. لكننى الآن مغلوب على أمرى، ولا أستطيع أن أفكر أو أقطع برأى. كل ما فى وسعى أن أطيعك وسأظل هنا.

- ٣ -

ـ ماذا جنيت..؟ ماذا جنيت؟ لقد سلّمته إيّاها ورحلت بعيداً..! عليّ أن ألحق بهم. لارا..! لارا..! لا يستطيعون سماعى، فالريح معاكسة، ولم أقم بوداعها.. وقف على البوابة، والمعطف فوق كتفه. بصره مشدود إلى نقطة بعيدة. كانت الشمس تبث شعاعاً خافتاً على المساحة الشاسعة بين أشجار البتولا، والزحافة منطلقة كالسهم، ثم اختفت فجأة.

عاد إلى الداخل.

وراح يفكر:

ـ الآن، سأنطلق إلى موسكو، لأنجو بحياتى.. لكن حين وصل إلى غرفة النوم وشاهد الفوضى، فالأشياء ملقاة هنا وهناك ركع على ركبتيه مسنداً صدره على حافة الفراش، دافناً رأسه فى الأغطية، وبكى بمرارة وطويلاً كالأطفال

- ٤ -

طيلة أسبوع صوّر له سمعه الأوهام، فظن أنه سمعها تناديه: يورا..! من الغرفة المجاورة..

ذات ليلة صحا وسمع دوى طلقة بندقية... وبعد يوم أو يومين عند الغسق، سمع وقع خطوات تعبر الجليد..

شخص ما يقترب من المنزل بخطوات ثابتة وفى هدوء. تردد الزائر فى الدخول، كما لو أنه اندهش لعدم وجود القفل فى محله

كان يسير بخطوات ثابتة، وفى ثقة..

يورى يجلس إلى الطاولة وظهره إلى الباب.

نهض واستدار، وكان الزائر قد دخل.

رجل متين البنيان بوجه وسيم، يرتدى سترة من الفراء، وبنطلون، وحذاءين من جلد الماعز، وفوق كتفه بندقية..

الرجل بلا ريب، صاحب المنزل..

تساءل يورى لنفسه:

- أين رأيته يا ترى..؟ لا يمكن.. ذات صباح حار فى شهر مايو........ فى عربة سكة حديد...... سترلنكوف...!

- ٥ -

واتصل بينهما الحديث لساعات.. قال سترلنكوف:

جئت لأرى زوجتى وإبنتى. إن الرسالة التى قالت بأنهما هنا لم تصلنى فى التو. وهكذا فقدتهما... لقد كنت هنا منذ شهور، وبعد أن انكشفت مخابئى جميعاً قررت الإختفاء قبل أن يعتقلونى..!

لكنهم الآن يعرفون مكانى. علىّ أن أبلغك بأمر وهذا واجبى. عليك أن تغادر ڤاركينو. إنهم يضيّقون الخناق علىّ. ويكفى أنك فى خطر لوجودك معى هنا. وهناك ذئاب كثيرة العدد حولنا..

- إذن، فأنت الذى أطلق النار البارحة..؟

أجل، بالطبع أنك سمعتنى. لن أطيل معك، فإننى ذاهب فى الصباح. سوف يعتقلوننى فى الغد، ولقد أعدوا كل شىء لإدانتى، ولن يسمحوا لى بالدفاع عن نفسى. ولا حيلة لى فى ذلك ولا مفر لى..!

- ٦ -

أخيراً أوى يورى إلى الفراش.

صحا فى الليل، فقد حلم بأن صورة أمه قد انزلقت من الجدار وانكسر زجاج إطارها.

فى الصباح لم يدر أين هو، ثم تذكر:

لابد أن سترلنكوف قد صحا الآن، فلأذهب وأصنع بعض القهوة لنتناولها معاً...!

نادى:

- ياباڤيل باڤلوڤيتش...!

لكن، ما من مجيب...

في الغرفة المجاورة، قبعة سترلنكوف فوق الطاولة. أشعل يوري الموقد في المطبخ، وتناول الدلو، وذهب إلى البئر..

على بعد أمتار من البوابة، يرقد سترلنكوف في الممر. لقد انتحر بالرصاص. قطرات الدم تدحرجت من رأسه، وتجمعت مثل التوت الأحمر في الجليد.!

* * *

الفصل السابع عشر

ألم جديد وقاتل

- ١ -

رحل يورى إلى موسكو، قاطعاً الجزء الأكبر من الرحلة على قدميه. نصف القرى كانت خاوية، والحقول مهجورة وبغير حصاد كانت سنابل القمح الناضجة مدلاة فوق الأرض، فجمع يورى بعضها فى قبضتى يديه ودسها فى فمه، ولاكها بصعوبة بين أسنانه.

امتدت الحقول أمامه شاسعة لكن محصولها ضئيل؛ فقد عاثت فيه الجرزان فسادا. لقد اندفعت فى وجه يورى ويديه وبين طيات ثيابه فى الليل. انقلبت كلاب القرى طويلة الشعر إلى التوحش،

وصارت مسعورة، وتبعته على مسافة قريبة، كما لو أنها تتحين الفرصة المناسبة لتنقض عليه وتمزقه إرباً.. الغابة بالتلال فى الخريف ـ كثيفة بالأوراق الجافة بلون الذهب ـ مترعة بعناقيد الجوز الناضجة، كل ثلاث جوزات فى عنقود..

انتزع يورى بعض العناقيد، واستخرج منها الجوز، وحشا بها جيوبه..

كان يجلس على العشب قرب قرية دمرها حريق هائل، حين أطل عليه رأس أشقر الشعر من الضفة التالية، بكتفين نحيلتين وذراعين ضامرين... كان شخصاً قادماً بدلو ماء، توقف حين رأى يورى.. صبى فى العاشرة، حافى القدمين، بثياب مهلهلة.. كانت دهشته عظيمة حين رأى يورى:

ـ لا... لا يمكن... مــعــذرة، يا رفــيق، لكن... أجل..! بالتأكيد.! ألست الطبيب؟!

ـ وأنت، من تكون؟

ـ كنا معاً فى القطار المنطلق من موسكو.

إنه ڤاسيا، وقد ألقى بنفسه عند قدمى يورى. قبل يورى يديه وبكى. وانطلقا إلى موسكو معاً..

- ٢ -

استبدل يورى بملابسه الخبز تدريجياً، ووصل إلى ضواحى موسكو مرتدياً قبعة قاتمة من جلد الغنم، وسترة حربية نزعت أكمامها وأزرارها. من العسير التعرف عليهما بين رجال الجيش الأحمر، الذين غصت بهم المحطات والشوارع والميادين فى المدينة.

أرسل يورى نداءات إلى أقسام الحكومة، محاولاً الحصول على تصريح لإعادة أسرته إلى روسيا وكذا الحصول على جواز سفر لنفسه ليسافر إلى باريس ويعيدهم. لم يندهش يورى حين خاب مسعاه.

كتب كتباً قليلة تشمل القصائد، وفلسفة حياته وآرائه فى العقيدة والتاريخ. حصل ڤاسيا على دورة تدريبية فى الطباعة وتصميم الكتب، وطبع كتب يورى كتدريب له...

لكنه اصطدم بآراء يورى، وسرعان ما انفرط عقد صداقتهما...

ذهب يورى وعثر بركن فى مؤخرة شقة ميڤنتيتسكى.

اعتزل يورى زملاءه، وعاش فى فاقة كبيرة.!

- ٣ -

كان الصنبور فى مطبخ الأسرة، وقد اعتاد يورى أن يذهب ويجىء محملاً بالماء اللازم للاحتياجات اليومية..

وخلال جولاته لجلب الماء ارتبط بصداقة مع مارينا، الفتاة ابنة صاحب المنزل.. ولطالما كانت تحضر لتلبية طلبات المنزل والمعاونة فى شئونه.. ذات يوم بقيت معه ولم تعد لوالديها، ومن ثم أصبحت زوجة ليورى. لكن لارتباط يورى بتونيا برباط الزواج، فإنه لم يعلن زواجه بمارينا على الملأ.

لقد أنجبا بنتين، وتحملت مارينا غرابة أطوار زوجها التى كانت تستفحل وتشتد، كما تحملت الفوضى والقذارة اللتين يسببهما فى المنزل، وجلافته وتقلب مزاجه.

كان ميشاجوردون مقيماً فى غرفة قريبة، فهرعت إليه مارينا... وسألته بصوت يرتعش من الخوف:

- هل يورى عندك، ياميشا..؟

- لا.

- أين يمكن أن يكون، إذن؟

ظلا فى البحث عنه يومين. بحث فى كل الأماكن، لكن بلا جدوى. فى اليوم الثالث وصلت رسائله إلى كليهما. كان نادماً على الفوضى التى تسبّب فيها، ويرجوهما ألا يقلقا عليه..

أخبرهما أنه أراد أن ينفرد بنفسه بعيداً لفترة، ليركز على شئونه الخاصة، ويحاول الحصول على وظيفة تعينه على إعادة بناء حياته بأسرع ما يمكن.

ثم وصل مارينا بعض المال منه، وهى لا تكف عن البحث عنه، لكن لم تعثر له بأثر، بينما كان يقيم على مسافة قريبة منها لدن أخيه غير الشقيق إيڤجراف، الذى وصل تواً إلى موسكو. لقد اتخذ ليورى غرفة فى شارع كامرجر، وأوجد له منصبا مرموقاً فى المستشفى، وأمده بالمال..

لقد وعده إيڤجراف بأن ييسر له إما اللحاق بأسرته فى باريس، أو يحضر الأسرة كلها إلى موسكو. كالعادة ظلت قوة الأخ ومصدرها لغزاً ولم يحاول يورى أن يميط اللثام عنه.

— ٤ —

ذات صباح، فى نهاية أغسطس استقل يورى الترام ليذهب إلى مستشفى بوتكين. إنه أول يوم له فى منصبه الجديد. تعطل محرك المترو، وتوقف الترام.

نزل السائق، يسير حول الترام يتفحص الآلات والعجلات.

كان صباحاً حاراً، والترام شديد الزحام وبلا تهوية. وثمة عاصفة على وشك أن تهب.

جلس يورى مضغوطاً أمام النافذة، يرقب الناس يسيرون، رائحين غادين.

كانت سيدة عجوز ذات شعر أشيب تتحرك فى تؤدة فوق الرصيف، يزين رأسها قبعة خفيفة من القش على جانبيها زهور، وترتدى فستاناً من الطراز القديم بنفسجى اللون.

ضاقت السيدة بالقيظ، فرفعت منديلها إلى شفتيها وحاجبيها. سقط المطر غزيراً، وانتزعت الريح المفاجئة قبعة السيدة وأطارتها بعيداً. نهض يورى محاولاً أن يفتح النافذة، لكنه لم يقدر على تحريكها.

صاح الناس بأن النافذة محكمة الإغلاق، لكن بدا يورى كأن لم يسمعهم.

دفع الحاجز ثلاث مرات ليفتح النافذة، وفجأة شعر بألم قاتل. أدرك أن شيئاً داخله ينفجر. بجهد خارق اندفع وسط الزحام وخرج إلى الرصيف الخلفى.

لقـد تحــرر من الزحــام، وانطلق يعـدو فى الطريق، فـجـأة هوى... ولم يصحـوا أبداً.. إندفع الناس يتـحـدثون ويتـجـادلون وتعددت النصائح.. اكتشفوا فجأة بأنه لم يعد يتنفس، لقد كف قلبه وتوقف. توقفت السيدة ذات الفستان البنفسجى قليلاً، وألقت نظرة على الجثـة، وأنصـتـت إلى الحـديث، ثم واصلت السيـر. لم تدر السيدة بأنها قد سبق لها أن أنقذته من الموت.

- ٥ -

من خلال الباب المفتوح أمكن رؤية التابوت الخشبى المسجى داخله جسد يورى.

التـابـوت فـوق الطاولـة، ومـحـاط بأزهـار كـثـيـرة ومن أفـضل الأنواع.

لقد أمسكت مارينا الجثة بإحكام، ولم يفلحوا فى تخليصها من قبضتها إلا بعد جهد شديد..

كـان حـزن مـيشـاجوردون على صـديقـه عظيـمـاً كذلك ثمـة شخصـان هناك مـختلفان عن بقية الحضور. إنهمـا المخـتصـان بتـرتيبـات الجنازة. لقـد بعث هدوءهمـا فى النفـوس قشعـريرة..! حين دخل الرجل ذو العينين الضيـقتين القرغزيتين إلى الغرفة بصحبة المرأة الجميلة، تركهما الجميع وحدهما مع الجثة...



ـ ماذا اكتشفت، يا إيفجراف آندريفتش..؟

ـ الجنازة الليلة، لا أزال أجهل كيف توصلت إليه.؟

ـ وصلت إلى موسكو، وسرت وسرت، ثم إن هذا هو المنزل الذى أقام به زوجى آنتيبوف أثناء الدراسة، وبالذات فى هذه الغرفة. وحين دخلتها فوجئت برجل ميت.

تحلّق حولها الناس. بذلت مجهوداً خارقاً كى تمنع نفسها من السقوط مغشيا عليها.

إن قلبها ينفجر، وبرأسها صداع فظيع. نظرت إلى الجمهور المتحلق حولها. اقتربوا من الجثة ثم عادوا إلى مكانهم، وفى النهاية غادروا الغرفة وتركوها وحيدة.

رسمت علامة الصليب فوق. الجثة ثلاث مرات، وقبلت جبهة الميت ويديه. ظلت لفترة ساكنة، دون أن تفكر أو تبكى. ثم انفجرت باكية. قاومت الدموع، لكن كان ذلك فوق طاقتها، فاستسلمت لمشاعرها.

فجأة، رفعت ناظريها، فأدهشها أن تجد الغرفة مليئة بالبشر وتعج بالحياة والحركة الدائبة.. انفلتت بعيداً عن التابوت، وضغطت براحة يدها على عينيها، لتمسح الدموع بأصابعها. تقدم ستة رجال من التابوت، رفعوه، وحملوه إلى الخارج..

* * *

الفصل الثامن عشر

النهاية

- ١ -

ذات مساء هادئ صيفى فى موسكو، بعد مرور خمس أو ست سنوات على انتهاء الحرب العالمية الثانية، كان ميشا جوردون جالس قرب نافذة عالية تطل على المدينة الكبيرة التى تمتد بعيداً فى الغسق. كان يقلب صفحات كتاب من تأليف يورى جمع المؤلفات إيفجراف معاً فى مجلد واحد. لقد قرأها ميشا مرات ومرات حتى حفظ كلماتها عن ظهر قلب.

تكاثفت الظلمة حتى لم يعد بمقدوره أن يميز الحروف، وكان عليه أن ينير الغرفة..

ها هى موسكو تحته، تمتد إلى البعيد.. موسكو، مدينة يورى. ظهرت لميشا الآن، لا كمكان وقعت فيه الأحداث الجسام، بل كبطلة حكاية طويلة تقترب من ختامها.

لقد ظن الجميع أن الانتصار فى الحرب سيعبقه التنوير والحرية، لكن ذلك لم يتم. خيّل إلى ميشا أن الحرية، حرية الروح إنما هى موجودة فى مكان عال فى الهواء...

بلا ريب سوف تظهر فى مكان ما فى المستقبل، قوية، وحقيقية فى النهاية.

شعر بفرح آمن تجاه هذه المدينة المقدسة، وتجاه كل الأرض، وتجاه كل من يعيشون عليها، حتى الذين دافعوا وماتوا فى سبيلها، ومن أجل أطفالهم.

غمرته الموسيقى الصامتة بالسعادة، وانتشرت بعيداً وعلى أوسع نطاق. وبدا أن الكتاب بين يديه يحس بإحساسه، وأنه يسانده ويباركه.!

(تمّت).

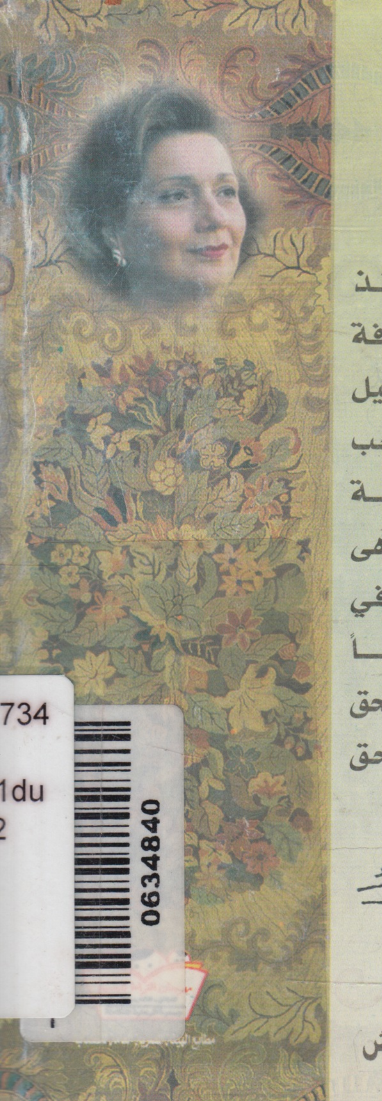
الفهرس

- **الجزء الثانى** ٧٠

رقم الإيداع ١٥٩٥٩ / ٢٠٠٢

I.S.B.N 977-01-8162- 5

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب



لقد أدركنا منذ البداية أن تكوين ثقافة المجتمع تبدأ بتأصيل عادة القراءة، وحب المعرفة، وأن المعرفة وسيلتها الأساسية هى الكتاب، وأن الحق في القراءة يماثل تماماً الحق فى التعليم والحق فى الصحة.. بل الحق فى الحياة نفسها.

سوزان مبارك

١٠٠
قرش